جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية

مقاصد سورة الحجرات

دراسة موضوعية

كتبه: الدكتور
أيمن حسن رجب عبد الغني
مدرس التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين
والدعوة بالمنوفية - جامعة الأزهر.

مستلة من
حولية كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية
العدد الثلاثون، لعام ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١م
والمودعة بدار الكتب تحت رقم 6157/٢٠١١

دار الأندلس للطباعة-أمام كلية الهندسة-عمارات الزراعيين-شبين الكوم ت ٠٤٨٢٢٢٢٠٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي نزل الفرقان علي عبده ليكون للعالمين نذيرا، ومعجزاً للإنس والجن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، نحمده علي **تفضله** علينا بكتابه تفضلاً كبيراً، ﴿ وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾.[1]

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أنزل الكتاب وهو يتولي الصالحين.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، معلم الحكمة، وهادي الأمة، أرسله بالنور الساطع، والضياء اللامع (ﷺ) وبارك عليه، وعلي آله الأبرار، وصحبه الأخيار.

أما بعد :-

فإن كتاب الله تعالي هو الطريق القويم، الموصل لمرضاة الله تعالي، قال تعالي : ﴿ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.[2]

جمع الله فيه أشتات الحكمة، وجعله أفضل دستور عادل صالح لتنظيم حياة الأفراد والجماعات والأمم، وأعدل قانون عرفته البشرية، وهذا هو سر خلوده، ولذا كان هو المعجزة الكبري لرسول الله (ﷺ) من تمسك به فاز، ومن ابتغي الهدي في غيره أضله الله، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه فقد هدي إلي صراط مستقيم.

وأفضل ما يشتغل به المؤمن هو ما يجلي معاني هذا الكتاب العزيز، بقدر طاقته البشرية، لاستخراج كنوزه، والكشف عن هداياته لينتفع بها من كان له قلب أو ألقي السمع وهو شهيد.

- وهذه محاولة متواضعة في التفسير الموضوعي الذي هو عبارة عن : تفسير الآيات التي تتصل بموضوع واحد بأن يجعل منها الباحث وحده متكاملة متناسبة، بصرف النظر عن تعدد أماكنها في القرآن، وتباعد أزمنة نزولها، وإنما المهم هو تناولها كلها لموضوع واحد، وإن اختلفت عباراتها ومعانيها بالزيادة والاختصار.

ويكون ذلك بجمع الآيات القرآنية ذات الهدف المشترك مع ترتيبها حسب النزول والوقوف علي أسباب النزول وتناولها بالشرح والتعليق والاستنباط والإحاطه بكل جوانب الموضوع بقصد الوصول إلي الغاية وإفادة المجتمع منه ثم العمل علي إزالة ما قد يكون بين الآيات من موهم الإختلاف والتناقض، موقناً أن القرآن لا يوجد فيه اختلاف تناقض، وإنما قصاري ما فيه اختلاف تنوع وهذا يمكن التوفيق فيه والجمع بين الآيات بعضها وبعض.

ثم يقوم الباحث في هذا النوع من التفسير بعد ذلك ببيان معني الآيات علي وجه يفهم منه الحكمة في إيراد الآيات والغرض من هذا التشريع الإلهي مع تدعيم التفسير بالسنة المطهرة وإيراد أسباب النزول إن وجدت مع التركيز علي إخراج الموضوع في صورة متكاملة تامة البناء والإحكام، واضعاً نصب عينيه أنه يبرز للناس طريقاً من طرق القرآن وإرشاداته التي هي أقوم الطرق وأعدلها ويكون هدفه الأسمي إظهار محاسن القرآن لخدمة الأفراد والمجتمع الإسلامي.

وهذه الطريقة هلي الأشهر والأيسر في كيفية البحث في التفسير الموضوعي وهي المعمول بها في مجال الأبحاث العلمية الموضوعية وإذا أطلق التفسير الموضوعي انصرف إليها.

بيد أنه هناك طريقة أخري لا تقل فائدة أو أهمية عن سابقتها - وهي : جعل السورة القرآنية وحدة متكاملة هدفها واحد، وإن تعددت موضوعاتها أو أغراضها ومقاصدها.

فهي تدور حول مركز ركيز يسمي بالغرض سواء أكان عاماً أم خاصاً...[3]

وقد استخرت الله (ﷻ) أن يكون بحثي هذا في هذا النوع من التفسير الموضوعي راجياً منه سبحانه أن يلهمني التوفيق والصواب.

---

(1) سورة البقرة آية : ٢٦٩.

(2) سورة المائدة آية (١٥-١٦).

(3) راجع الحديث عن التفسير الموضوعي وكيفية البحث فيه بالتفصيل في كتاب : التفسير الموضوعي، ص١٢-١٩ للدكتور/ محمد القاسم ط القاهرة سنة ١٤٠١ هـ

وقد سميته :- " مقاصد سورة الحجرات" - دراسة موضوعية

وكان من أسباب اختياري لهذه السورة الكريمة بعد تأمل شديد لمنهجها وتتبع لأسلوبها أني وجدتها تتعلق بالمجتمع المسلم وتتحدث عن الأسس والآداب والقواعد التي تتعلق ببناء هذا المجتمع وتربيته. تربية صحيحة مستمدة من الكتاب والسنة.

ذلكم المجتمع المسلم الذي تمسك بتلك الآداب الربانية ونما بدستوره السماوي، ولم يكن هو الذي أوجد نظامه كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية، ولكن هذا المجتمع المسلم الذي من عليه الله - سبحانه وتعالي- بتلك الآداب تهاون أو فرط اليوم في كثير منها بسبب الغفلة والأعراض عن منهج الله تعالي، وإتباع الهوي ومسالك الشيطان وإيثار الدنيا علي الآخرة....

- فمن أجل ذلك أردت أن أذكر تلك الآداب والقواعد التي خص الله بها المجتمع الإسلامي وأمرنا بالإلتزام بها في الكتاب والسنة لإعادة استكشاف الحق من نورهما، فإنه لا فلاح لجماعة المسلمين إلا باتباع هذا المنهج....

ومن هنا جاءت أهمية هذا الموضوع : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [1]

هذا وقد كان هدفي الأسمي إظهار محاسن القرآن لخدمة الأفراد والمجتمع الإسلامي فانشغلت ببيان مقاصد السورة فحسب.

كما حددت في عنوان البحث دون التركيز علي الجوانب الأخري التحليلية إلا بما يخدم الفكرة فقط - والله من وراء القصد.

- وقد قسمت البحث إلي مقدمة : بينت فيها سبب اختيار هذه السورة - وخطة البحث.

ثم تمهيد تكلمت فيه عن التعريف بالسورة وموضوعاتها وعلاقتها بالسورة التي قبلها... إلخ.

- ثم قمت بجمع الآيات القرآنية في السورة ذات الهدف المشترك وجعلتها تحت موضوع واحد أو مقصد واحد، ثم بينت سبب النزول إن وجد ومناسبة الآيات لما قبلها حتي نؤكد علي أن السورة كلها نسيج واحد متكامل وبيان المعني العام للآيات بإيجاز، واللطائف التي ترشد إليها الآيات.
- وبناءً علي ذلك فقد تمعنت في مقاصد هذه السورة الكريمة- التي تهدف في جملتها إلي ترسيخ جملة من الآداب والأسس التي يتحقق بها بناء المجتمع الإسلامي- فحصرتها تفصيلاً في ستة مقاصد علي النحو التالي:-

المقصد الأول : حرمة التقدم بين يدي الله ورسوله (ﷺ) ووجوب الإستسلام لحكمهما. وهو بالنسبة للآية (١).

المقصد الثاني : وجوب الأدب مع رسول الله (ﷺ) حياً وميتاً. وهو بالنسبة للآيات (٢-٣-٤-٥).

المقصد الثالث : من آداب المجتمع الإسلامي لزوم الصدق ووجوب التثبت من الأخبار. الآيات من (٦) إلي (٨).

المقصد الرابع : موقف المجتمع المسلم من طائفتين من المؤمنين نشب بينهما قتال أو خلاف وحكم البغاة منهما. وهو بالنسبة للآيتين (٩-١٠).

المقصد الخامس : تحذير المجتمع المسلم من آفات اللسان وسوء الأخلاق التي تؤدي إلي فساد المجتمع وتمزيقه. وهو بالنسبة للآيتين (١١-١٢).

المقصد السادس : البشرية بعضها من بعض وأكرمهم عند الله أتقاهم.
آية (١٣).

المقصد السابع : ليس الإيمان بالتمني كما ادعي جفاة الأعراب ولكنه ما وقر في القلب وصدقه العمل. وهو بالنسبة للآيات من (١٤) حتي (١٨) نهاية السورة.

الخاتمة : وقد بينت فيها أهم نتائج هذا البحث، والله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يحفظني من الزلل، وأن يجنبني الخطأ، وعلي الله قصد السبيل، وما توفيقي إلا بالله، والله المستعان وعليه التكلان.

دكتور / أيمن حسن رجب عبد الغني
مدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن
كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية
جامعة الأزهر

[1] سورة الأنفال آية :(٤٢).

التمهيد

يجدر بنا قبل الدخول في بيان مقاصد سورة الحجرات أن نمهد لذلك بتعريف مجمل بالسورة الكريمة حتي تكتمل الفائدة، يتضمن هذا التعريف ما يأتي :-

١- أسماء السورة وعدد آياتها.

٢- القول الفصل في زمان ومكان نزولها.

٣- مناسبة السورة وعلاقتها بما قبلها

٤- أغراض هذه السورة إجمالاً.

٥- الموضوعات الرئيسية التي تتحدث عنها السورة الكريمة.

٦- من مميزات هذه السورة الكريمة.

أولاً : أسماء السورة وعدد آياتها.

سميت هذه السورة في جميع المصاحف وكتب السنة والتفسير بسورة الحجرات، وليس لها اسم غيره، ووجه تسميتها بذلك أنها ذكر فيها لفظ الحجرات، ونزلت في قصة نداء بني تميم رسول الله (ﷺ) من وراء حجراته، فعرفت بهذه الإضافة.[1]

وأقول : قد سميت هذه السورة بسورة الحجرات لأن السورة تسمي بأغرب شيء فيها، وقد وردت هذه الكلمة في الآية الرابعة من هذه السورة في قوله تعالي :﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ والمقصود بالحجرات : حجرات أزواج النبي (ﷺ) وهذا منهج متبع وشامل لكل سور القرآن الكريم، فتسمي السورة بأظهر ما جاء فيها من اسم أو كلمة تدور عليها قصة في موضوع من موضوعاتها الرئيسية، أو تسمي السورة بمضمونها كسورة الإخلاص وهذه دقيقة من دقائق القرآن ولطائفه- الله أعلم بها- في تطابق اسم السورة مضمونها كلياً أو جزئياً وتسميته بكلام الله وغيره من الأسماء التي بلغت كما أحصاها بعض العلماء خمسة وخمسين إسما وكلها تطابق مضمون هذا الكتاب العزيز، وفي ذلك تعليم للمؤمنين بهذا القرآن أن تطابق تسميتهم بالمسلمين حقيقتهم الكونية والشرعية فلا يتناقضون ولا يتوزعون بين الإيمان والنفاق والكفر...[2]

أما عن عدد آيات سورة الحجرات : فقد عدّ جميع العادين آيها ثمان عشرة آية بالاتفاق، ولم يخالف ذلك أحد.[3]

ثانياً : القول الفصل في زمان ومكان نزولها.

هذه السورة مدنية باتفاق أهل التأويل أي مما نزل بعد الهجرة، وحكي السيوطي في الإتقان قولاً شاذاً أنها مكية ولا يعرف قائل هذا القول، وفي أسباب النزول للواحدي أن قوله تعالي : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[4] نزلت بمكة في يوم فتح مكة ولم يثبت أن تلك الآية نزلت بمكة، ولم يعدها في الإتقان في عداد السور المستثني بعض آياتها.

وهي السورة الثامنة بعد المائة في ترتيب نزول اللسور نزلت بعد سورة المجادلة وقبل سورة التحريم وكان نزول هذه السورة سنة تسع من الهجرة، وأول آيها في شأن وفد بني تميم.[5]

وأقول : إن الضوابط والمميزات التي وضعها العلماء لمعرفة المكي من المدني تنطبق كل المطابقة لمعني هذه السورة وتشهد علي أن سورة الحجرات مدنية بالإجماع، ولعل من أبرز هذه الشواهد افتتاح السورة بقوله ﴿ يَا أَيُّهَا

---

(١) راجع التحرير والتنوير لسماحة العلامة الطاهر محمد بن عاشور المجلد الثاني عشر جـ٢٦ ص(٢١٣) ط. التونسية- وقيل : إنها سورة الأخلاق والآداب، فقد أرشدت إلي آداب المجتمع الإسلامي وكيفية تنظيمه، وأشادت مكارم الأخلاق. وهذا من اجتهاد بعض المفسرين - انظر التفسير المنير د/ وهبة الزحيلي ج٢٦ صـ ٢١١ طبعة أولي، دار الفكر المعاصر بيروت - دار الفكر دمشق ١٤١١هـ.

(٢) انظر : البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ١ (٢٧٠-٢٧٢) الطبعة الثانية ط دار الفكر. بيروت

- والاتقان في علوم القرآن للسيوطي ج١ (١٥٠-١٦١) نشر دار التراث القاهرة ط أولي ١٣٨٧هـ تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٣) انظر التحرير والتنوير لابن عاشور المجلد الثاني عشر ج٢٦ صـ٢١٣.

- وانظر التفسير المنير د/ وهبة الزحيلي ج٢٦ صـ٢١١.

(٤) سورة الحجرات آية : ١٣.

(٥) انظر : التحرير والتنوير لابن عاشور المجلد الثاني عشر ج٢٦ صـ ٢١٣.

الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ْوَلِلكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ البقرة١٠٤ وأن هذا النداء ورد في السورة خمس مرات، ثم إن الموضوعات التي تحدثت عنها السورة الكريمة تشهد علي ذلك ففيها توجيه لجماعة المؤمنين أن يلتزموا بجملة من الآداب والأحكام والأوامر والنواهي والتكاليف، ومعلوم أن ذلك من خصائص القرآن المدني.

ثالثاً : مناسبة السورة وعلاقتها بالسورة التي قبلها :

مما هو جدير بالذكر أن علم المناسبات بين سور القرآن وآياته يؤكد علي أن القرآن الكريم نسيج واحد متكامل الأجزاء، فيجعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوي بذلك الإرتباط ويصير التأليف حالة حال البناء المحكم، المتلائم الأجزاء. [1]

إن من يتأمل هذا العلم يلمس جلاله ويدرك رفيع منزلته، فيه يتجلي لنا أن القرآن العظيم بناء شامخ، وصرح متماسك اللبنات.

لا يكاد الباحث المنصف يحس بوجود مجافاة بين الكلمات القرآنية وبعضها داخل الآية الواحدة، ولا يبصر نفوراً بين الآيات وما جاورها من آيات أخري وكذلك الحال بين جميع سور القرآن، فكل سورة تأخذ بعجز سابقتها وصدر لاحقتها، وكل آية تتعانق مع سابقتها ولاحقتها معانقة تامة، الأمر الذي لا يملك المنصف بإزائه إلا أن يخر ساجداً لمن هذا كلامه، وهو يتلو قوله تعالي: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[2].

ويجب أن نعلم هنا إتماماً للفائدة أن : معرفة المناسبات أو الترابط ليس أمراً توفيقياً، ولكنها تعتمد علي اجتهاد المفسر ومبلغ تذوقه لإعجاز القرآن، وأسراره البلاغية وأوجه بيانه الفريد، فإذا كانت المناسبة دقيقة المعني منسجمة مع السياق، متفقة مع الأصول اللغوية في علوم العربية، كانت مقبولة لطيفة.

ولا يعني هذا أن يلتمس المفسر لكل آية مناسبة، فإن القرآن الكريم نزل منسجماً، وقد يدرك المفسر ارتباط آياته وقد لا يدركها، فلا ينبغي أن يعتسف المناسبة اعتسافاً، وإلا كان تكلفاً ممقوتاً. [3]

هذا وقد ذكر أهل التفسير مناسبة وعلاقة بين سورة الحجرات وسورة الفتح التي قبلها من جوانب متعددة خلاصتها علي النحو التالي:-

أولاً: السورتان مدنيتان، ومشتملتان علي أحكام، فسورة الفتح فيها أحكام قتال الكفار، والحجرات فيها قتال البغاة من المسلمين.

ثانياً : سورة الفتح ختمت بالذين آمنوا وأوصافهم في قوله تعالي : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾[4]، والحجرات افتتحت بالذين آمنوا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾.

ثالثاً : سورة الفتح تضمنت تشريفاً وتعزيزاً وانتصاراً لرسول الله (ﷺ) والحجرات كذلك في مطلعها تضمنت توقيراً وتبجيلاً له والأدب معه (ﷺ).

رابعاً: في آخر سورة الفتح ذكر الله تعالي الصالحين وما وعدهم من الثواب ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾ ربما صدر من المؤمنين العاملين الصالحات بعض الشيء مما ينكر ويستهجن وينهي عنه كرفع الصوت فوق صوت النبي (ﷺ) ومسابقته في الكلام والعمل أو مسابقة القرآن وسنته المطهرة، فقال (ﷻ) ناهياً عن ذلك : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[5].

رابعاً: أغراض هذه السورة إجمالاً.

---

(1) انظر : البرهان في علوم القرآن (٦٢/١) بتصرف.
(2) سورة هود آية :١.
(3) هذا الكلام نقلاً عن شيخنا أ.د/ القصبي زلط في كتابه مباحث في علوم القرآن صـ(٧٨) ط دار القلم الثانية ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
(4) سورة الفتح آية : ٢٩.
(5) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي ج٢٨ صـ١١٠ ط الثانية طهران. ==
= - وغرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري صـ٥٥ ج٢٦ الطبعة الحادية عشر ١٣٨٩هـ الحلبية- وروح المعاني للألوسي صـ١٣٣ ج٢٦- الثانية دار الطباعة المنيرية.

تتعلق أغراض هذه السورة بحوادث جدت متقاربة كانت سبباً لنزول ما فيها من أحكام وآداب، **وأولها :** تعليم المسلمين بعض ما يجب عليهم من الأدب مع النبي (ﷺ) في معاملته وخطابه وندائه، دعا إلي تعليمهم إياها ما ارتكبه وفد بني تميم من جفاء الأعراب لما نادوا الرسول (ﷺ) من بيوته كما سيأتي عند قوله تعالي ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

ثانيهما : وجوب صدق المسلمين فيما يخبرون به، والتثبت في نقل الخبر مطلقاً وأن ذلك من خلق المؤمنين، ومجانبة أخلاق الكافرين والفاسقين.

ثالثهما: وتطرق إلي ما يحدث من التقاتل بين المؤمنين والاصلاح بينهم لأنهم إخوة، وما أمر الله به من آداب حسن المعاملة بين المسلمين في أحوالهم في السر والعلانية.

رابعاً : ونخلص من ذلك إلي التحذير من بقايا خلق الكفر في بعض جفاة الأعراب تقويماً لأود نفوسهم.

وقال فخر الدين عند تفسير قوله تعالي ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلي مكارم الأخلاق وهي إما مع الله أو مع رسوله (ﷺ) أو مع غيرهما من أبناء الجنس، وهم علي صنفين: إما يكونوا علي طريقة المؤمنين وداخلين في رتبة الطاعة أو خارجين عنها وهو الفسوق.

والداخل في طائفتهم : إما أن يكون حاضراً عندهم، أو غائباً عنهم فهذه خمسة أقسام، قال فذكر الله في هذه السورة خمس مرات ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وأرشد بعد كل مرة إلي مكرمة من قسم من الأقسام الخمسة. [1]

خامساً : الموضوعات الرئيسية التي تتحدث عنها السورة الكريمة

لقد بين الله (ﷻ) في هذه السورة أسساً وقواعد بها صلاح الأمة الإسلامية وسعادتها في الدنيا والآخرة وعليها يقوم المجتمع الإسلامي الفاضل السليم من العيوب، والنظيف من كل شوائب الجاهلية وأخلاقها السيئة.

- وإن المتأمل في سورة الحجرات يلحظ أن الموضوع الرئيسي الذي تتحدث عنه السورة علي وجه الإجمال هو : وجوب الأدب مع الله تعالي ومع رسوله (ﷺ) حياً وميتاً، وتوجيه المؤمنين إلي ذلك وإرشادهم إلي جملة من مكارم الأخلاق التي تدل علي صدق إيمانهم وتحقق الأخوة الإيمانية بين أفراد المجتمع المسلم".
- والسورة في منهجها الفريد لبناء المجتمع المؤمن وتقوية روابطه بالله وبرسوله (ﷺ) وبالوحي من الكتاب والسنة ثم بالمؤمنين بعضهم ببعض يتجلي منهجها في أمرين عظيمين لمن يتدبر ويتفكر:

الأول : أنها خاصة بوضع منهج كامل متكامل في الحياة الإسلامية لمجتمع فاضل كريم سليم من العيوب ونظيف من كل شوائب الجاهلية وهو المجتمع المؤمن الذي تستقل شخصيته ومنهجه في الحياة عن غيره، وله قواعده وأصوله ومبادئه ومناهجه التي يقوم عليها.

الثاني : أن هذا المجتمع المؤمن نتيجة جهد ضخم ثابت صابر، وهو ما تمثله " توجيهات القرآن الكريم والتربية النبوية الحكيمة لنشأة وتربية تلك الجماعة المسلمة...فلم يعد منذ ذلك الحين فكرة مثالية، ولا حلماً طائراً، يعيش في الخيال" وإنما هو الجهد المتواصل والعناية الساهرة والصبر الطويل" في التهذيب والتشذيب، والتوجيه، والدفع، والتقوية، والتثبيت" وفي هذا كله كانت تتمثل الرعاية الإلهية لهذه الجماعة المختارة- علي علم- لحمل هذه الأمانة الكبري، وتحقيق مشيئة الله بها في الأرض.... وبهذا كله أشرقت تلك الومضة العجيبة في تاريخ البشرية، ووجدت هذه الحقيقة التي تتراءي من بعيد وكأنها حلم مرفرف في قلب، أو رؤيا مجنحة في خيال"[2].

فالسورة إذاً عبارة عن " فصول تأديبية وتعليمية وأخلاقية وإجتماعية وسياسية وسلوكية فيما يجب علي المسلمين تجاه النبي (ﷺ) وتجاه بعضهم، وفيها مشهد من مشاهد الأعراب في عهد النبي (ﷺ) وتبجحهم بالإسلام، وميزان لصدق إيمان المؤمنينوإفساح المجال للأعراب لدخولهم في حظيرة الإسلام والدولة الإسلامية". [3]

([1]) هذا نقلاً عن الظاهر بن عاشور في تفسيره " التحرير والتنوير" المجلد الثاني عشر ج٢٦ صـ(٢١٣-٢١٤).
([2]) انظر : في ظلال القرآن للسيد قطب ٣٣٣٥-٣٣٣٧ ج٢٧ المجلد السادس بتصرف ط ٤ سنة ١٩٧٤م-١٣٩٧هـ دار الشروق.
([3]) انظر : التفسير الحديث لمحمد عزت در وزة ج١٠ صـ١١٨ طبعة حلبية، سنة ١٣٨٣هـ.

ولا تخرج هذه الموضوعات مع تعددها عن الموضوع الرئيسي الذي أشرنا إليه سابقاً وهو وجوب الأدب مع الله ومع رسوله (ﷺ) والنهي عن التقدم عليهما في أي مأمر من الأمور ووجوب الإنقياد والطاعة لهما في كل ما حكما به، ثم تخلية المؤمنين بترك الرذائل وتحليتهم بالفضائل.

ولبيان هذه الموضوعات المتفرعة عن هذا الموضوع الرئيسي علي وجه التفصيل حسب ما وردت في السورة يمكن إجمالها وحصرها فيما يلي:

١- الأدب مع الله تعالي بالتأدب مع كتابه العزيز ورسوله الكريم (ﷺ) وعبيده المؤمنين.

٢- الأدب مع الرسول (ﷺ) ويتناول شخصه وسنته فلا ترفع الأصوات عليه حياً وميتاً، ولا يتقدم علي سنته ويرغب عنها وهي شرح للقرآن الكريم.

٣- الإحتراز من نبأ الفاسق لئلا تكون الفتنة والإفتتان بسبب الإصغاء للكذب.

٤- مسؤولية المؤمنين إذا احتدم الإختلاف بين فريقين من المؤمنين بأي شكل من الأشكال.

٥- تقدير المؤمنين بعضهم بعضاً في حضورهم فلا يؤذون ولا يزدرق بهم بسخرية ولا لمز ولا تنابز بالألقاب، وتنقيص باسم أو صفة أو نسب أو هيئة، ولغة ولون معطن.

٦- وتقديرهم في حال غيبتهم فلا يظن فيهم إلا خيراً ولا يتجسس عليهم ولا يغتابون وتمزق أعراضهم وتؤكل لحومهم.

٧- البشرية بعضها من بعض وأكرمهم أتقاهم.

٨- الإيمان بالقلب واللسان والعمل بالجوارح معاً يزيد وينقص ودرجة الإسلام دونه. [١]

([١]) انظر : تفسير الفخر الرازي ج٢٨ صـ (١١٨-١١٩).

سادساً : بعض ما تتميز به سورة الحجرات بإيجاز.

ذكر بعض المفسرين أن هذه السورة هي أول سور المفصل (بتشديد الصاد ويسمي المحكم) علي ما ذهب إليه المتأخرون من الفقهاء.

وفي مبدأ المفصل عدة أقوال أشهرها قولان، قيل : إن مبدأه سورة "ق"، وقيل: سورة الحجرات.

وفي مبدأ وسط المفصل قولان أصحهما أنه سورة عبس.

وفي قصارة قولان أصحهما أنها من سورة " والضحي" وهذا هو ما نسب إلي المالكية.

هذا وقد اختلف الحنفية في مبدأ المفصل علي أقوال اثني عشر والصحيح أن أوله من الحجرات، وأول وسط المفصل سورة الطارق، وأول القصار سورة " إذا زلزلت الأرض".

وعند الشافعية قيل أول المفصل سورة الحجرات وقيل سورة "ق" ورجحه ابن كثير في التفسير.

وعند الحنابلة أول المفصل سورة "ق".

والمفصل بتشديد الصاد : هو السور التي تستحب القراءة ببعضها في بعض الصلوات الخمس علي ما هو مبين في كتب الفقه. [1]

ومع كون بعض الفقهاء قد ارتضي أن تكون سورة الحجرات هي بداية المفصل كالمتاخرين منهم وبعض المتقدمين كالأحناف إلا أنه قد وجدت بعض الشواهد التي ترجح أنها خاتمة المثاني، وأول المفصل سورة "ق" ومن ذلك ما روي من قصة الأصحاب رضي الله عنهم في تحزيب القرآن فجاء في الخبر "ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدي عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل وحده"[2]

فثلاث هي البقرة وآل عمران والنساء، وخمس من المائدة إلي براءة، وسبع من يونس إلي النحل، وتسع من الإسراء إلي الفرقان، وإحدي عشرة من الشعراء إلي يس، وثلاث عشرة من الصافات إلي الحجرات، ثم حزب المفصل من "ق" إلي آخر القرآن الكريم، وهذا ما صححه الحافظ ابن كثير في تفسيره. [3]

وأقول : سواء أكانت سورة الحجرات من المثاني أم من المفصل فإنه قد ورد الثناء عليهما معاً في الحديث الذي رواه واثلة بن الأسقع عن النبي (ﷺ) أنه قال :" إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني المئين مكان الإنجيل، وأعطاني مكان الزبور المثاني، وفضلني ربي بالمفصل". [4]

مقاصد السورة الكريمة

المقصد الأول

"حرمة التقديم بين يدي الله ورسوله (ﷺ) ووجوب الإستسلام لحكمهما"

قال الله تعالي ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

سبب نزول الآية

وردت روايات متعددة في سبب نزول هذه الآية علي النحو التالي:-

---

(1) راجع المسألة بالتفصيل في : التحرير والتنوير لابن عاشور المجلد الثاني عشر ج٢٦ صـ(٢١٤-٢١٥).

(2) الحديث رواه أبو داود في سننه عن أوس بن حذيفة الثقفي : سألت أصحاب رسول الله (ﷺ) كيف تخربوا القرآن؟ قالوا ثلاث وخمس...." وذلك في باب رقم ٣٢١-باب تخريب القرآن رقم ١٣٨٠ج٤ صـ(٢٧١-٢٧٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود للعلامة شمس الحق آباوي تحقيق/ عبد الرحمن عثمان الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م الناشر محمد عبد المحسن صاحب المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

(3) انظر تفسير ابن كثير المجلد الرابع صـ١٩٧ طبعة المكتبة العصرية صيدا. بيروت ط٣ ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م

(4) الحديث ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج٧ صـ(١٦١) الناشر مؤسسة المعارف. بيروت. لبنان ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م- وقال رواه أحمد والطبراني بنحوه- وعن أبي أمامه قال قال رسول الله (ﷺ) "أعطاني ربي السبع الطوال مكان التوراة والمئين= =مكان الإنجيل وفضلت بالمفصل" رواه الطبراني وفيه ليث بن أبي سليم وقد ضعفه جماعة ويعتبر بحديثه، وبقية رجاله رجال الصحيح - والله أعلم-.

١- قيل إن وفد بني تميم قدموا علي رسول الله (ﷺ) فقال أبو بكر- (رضي الله عنه) للرسول (ﷺ) : أمر عليهم القعقاع بن معبد وقال عمر: امر عليهم الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي، وقال عمر : ما أردت خلافك، فتماريا حتي ارتفعت أصواتهما، فنزلت الآية".[١]

٢- وأخرج ابن المنذر عن الحسن البصري : أن أناساً ذبحوا قبل رسول الله (ﷺ) يوم النحر، فأمرهم أن يعيدوا ذبحاً، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[٢]

٣- واخرج الطبراني في الأوسط عن عائشة : أن أناساً كانوا يتقدمون الشهر، فيصومون قبل النبي (ﷺ) فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.[٣]

ونقول إن الآية تعم ذلك وغيره فهي نهي عام وواضح عن مخالفة كتاب الله تعالي وسنة رسوله (ﷺ) بالقول أو الفعل، إذ أن العبرة بعموم اللفظ والحكم لا بخصوص السبب.

المعني العام للآية إجمالاً:-

قوله تعالي ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي لا تقدموا أمراً أو حكماً أو رأياً دونهما، أولاً تتقدموا، مأخوذ من مقدمة الجيش: من تقدم منهم، والمراد: لا تقولوا بخلاف القرآن والسنة والمراد بـ﴿ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أمامهما ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي خافوه واحذروا مخالفة أمره ونهيه في التقديم أو مخالفة الحكم وغيرهما ﴿ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم ﴿عليم ﴾ بأفعالكم.

وقوله ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ إستعارة تمثيلية، شبه حال الذين يبدون آراءهم أمام النبي (ﷺ) بحال من تقدم للسير أمام ملك أو حاكم عظيم،

---

(١) انظر : التفسير المنير د/ وهبة الزحيلي ج٢٦ صـ٢١٦
- وانظر: أسباب النزول للواحدي صـ٢٨٧ طبعة دار المعرفة- بيروت. لبنان توزيع عباس أحمد الباز مكة المكرمة
- وأيضاً أسباب النزول للسيوطي صـ٣٤٤ طبعة أولي ١٤١٠هـ-١٩٩٠م. دار الهجرة للطباعة والنشر. بيروت تحقيق / بديع السيد اللحام.

(٢) التفسير المنير ج٢٦ صـ٢١٦ ورواه الطبري في تفسيره ج٢٦ صـ١١٧ طبعة ثانية سنة ١٣٧٣هـ.

(٣) التفسير المنير ج٢٦ صـ٢١٦ وأيضاً أسباب النزول للسيوطي صـ٣٤٥ وأسباب النزول للواحدي ٢٨٧.

وكان عليه أدباً أن يسير خلفه. [1]

وأسلوب ﴿ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فيه توجيه أدبي رائع فقد استعير المشهد الحسي المستقبح بين يدي العظماء والذي فيه العجلة ويتظاهر بعدم الاحترام استعير لعدم متابعة الرسول (ﷺ) فيما جاء به من قرآن وسنة. [2]

والآية الكريمة هي أول أدب عظيم وجهه الله تعالي لجماعة المؤمنين الصادقين وهو حرمة التقدم بين يدي الله ورسوله(ﷺ) بقول أو فعل وأن معاملة النبي (ﷺ) يجب أن تقوم علي أساس من التوقير والإحترام العظيم، فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي يا أيها المؤمنون إيماناً صحيحاً. لا تتقدموا ولا تتعجلوا بقول أو حكم أو قضاء في أمر ما أو فعل قبل قضاء الله تعالي ورسوله (ﷺ) لكم فيه، فربما تقضون بغير حق، واتقوا الله في كل أموركم، وراقبوه في عدم تخطي ما لم يأذن به الله تعالي ورسوله (ﷺ) فإن الله سميع لأقوالكم، عليم بأفعالكم ونياتكم لا يخفي عليه شيء منكم.

وهذا نهي واضح عن مخالفة كتاب الله تعالي وسنة رسوله (ﷺ)، وذكر الرسول عليه الصلاة والسلام لأنه مبلغ عن الله تعالي شرعه ودينه، قال ابن عباس في الآية : "لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة"، وقال الضحاك بن مزاحم ت(١٠٥هـ)-:" لا تقضوا أمراً دون الله تعالي ورسوله (ﷺ) من شرائع دينكم".

وعن مجاهد قال " لا تفتاتوا علي رسول الله (ﷺ) بشيء حتي يقضي الله علي لسانه". [3]

وقال سفيان الثوري :" لا تقدموا بين يدي الله ورسوله (ﷺ) بقول ولا فعل". [4]

وقال القاضي أبو بكر بن العربي[5]:" قوله تعالي :﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أصل في ترك التعرض لأقوال النبي (ﷺ) وإيجاب أتباعه والإقتداء به". [6]

يقول صاحب الظلال عند تفسيره لهذه الآية" نداء من الله للذين آمنوا به بالغيب وإستجاشة لقلوبهم بالصيغة التي تربطهم به وتشعرهم بأنهم له وأنهم يحملون شارته، وأنهم في هذا الكوكب عبيده وجنوده وأنهم هنا لأمر يقدره ويريده وأنه حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم اختباراً لهم ومنة عليهم، فأولي لهم أن يقفوا حيث أراد لهم أن يكونوا وأن يقفوا بين يدي الله موقف المنتظر لقضائه وتوجيهه في نفسه وفي غيره، يفعل ما يؤمر، ويرضي بما يقسم، ويسلم ويستسلم... يا أيها الذين آمنوا، لا تقترحوا علي الله ورسوله اقتراحاً، لا في خاصة أنفسكم، ولا في أمور الحياة من حولكم، ولا تقولوا في أمر قبل قول الله فيه علي لسان رسوله، ولا تقضوا في أمر لا ترجعون فيه إلي قول الله وقول رسوله (ﷺ). [7]

تلك هي باقة من أقوال أئمة التفسير تبين الخطر الذي يتهدد من يتقدم علي كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) أو يقدم عليهما أي أمر من الأمور بالقول أو بالفعل، فليس لأي أحد مهما كانت منزلته أن يقطع في أي أمر من الأمور ويحكم فيه إلا بعد أن يعلم حكم الله

وحكم رسوله (ﷺ) فيه، وقد امتثل الصحابة- رضي الله عنهم- هذا التوجيه وبلغ حد الإمتثال منهم إلي أنهم كانوا بعد نزول الآية ونحوها كانوا يقولون إذا سئلوا عن شيء: الله ورسوله أعلم- حتي فيما يعرفونه ويدركون المراد به مخافة أن يتقدموا علي الله ورسوله (ﷺ) وقد وصف الله تعالي المؤمنين في آيات تترى من كتابه بأنهم يستجيبون لحكمه تعالي وحكم رسوله (ﷺ) معاً وأن من أعرض عن حكمهما حكم عليه بالكفر صراحة قال تعالي ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [8]، وقال تعالي ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا

---

(1) انظر التفسير المنير د/ وهبة الزحيلي ج٢٦ صـ٢١٤-٢١٥.
(2) انظر : تفسير روح المعاني للألوسي ج٢٦ صـ١٣٢ دار الطباعة المنيرية. ط٢ إحياء التراث العربي. بيروت.
(3) ذكره ابن حجر في الفتح ج٨ ٥٨٩ في كتاب التفسير- ٤٩ سورة الحرات طبعة مكتبة الرياض الحديثة- البطحاء- الرياض.
(4) انظر هذه الأقوال في : تفسير الطبري ج٢٦ صـ(١١٦-١١٧) المطبعة الحلبية. القاهرة ط ثانية سنة ١٣٧٣هـ
- وأيضاً التفسير المنير ج٢٦ (٢١٨-٢١٩) بتصرف.
(5) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله المكني بأبي بكر بن العربي ولد سنة ٤٦٨هـ وتوفي ٥٤٣هـ وهو من أجل علماء المالكية تفسيراً وفقهاً وأصولاً ولغة وأدباً.."
انظر في ؟؟؟: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لإبن فرحون ج١ ص (٢٨١-٢٨٤) طبعة أولي - سنة ١٣٥١هـ القاهرة
(6) أحكام القرآن لابن العربي ج٤ (١٧٠١-١٧٠٢). الحلبية. القاهرة ط. سنة ١٣٧٨هـ.
(7) في ظلال القرآن للسيد قطب مجلد ٦ ج٢٦ صـ٣٣٣٨.
(8) سورة المائدة : آية ٤٤.

أنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾[1].

وقال تعالي أيضاً : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [2].

اللطائف والأحكام التي ترشد إليها الآية :-

١- وجوب طاعة الله تعالي ورسوله (ﷺ) وتقديم حكم القرآن والسنة علي ما سواهما.

٢- قوله تعالي ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أصل في ترك التعرض لأقوال النبي (ﷺ) وإيجاب إتباعه والإقتداء به وربما احتج نفاة القياس بهذه الآية، وهو باطل منهم، فإن ما قامت دلالته، فليس في فعله تقديم بين يديه، وقد قامت دلالة الكتاب والسنة علي وجوب القول بالمقياس في فروع الشريعة، فليس فيه تقديم بين يديه. [3]

٣- الأمر بالتقوي وإيجابها عام في كل الأوامر والنواهي الشرعية، ومنها التقدم بين يدي الله تعالي ورسوله (ﷺ) المنهي عنه، والله يراقب الناس، فهو سميع لأقوالهم، عليم بأفعالهم. [4]

٤- إن التحاكم إلي الرسول (ﷺ) هو التحاكم إلي الله، وقد عصمه من الخطأ ووفقه وشهد له بالهداية، ولذا ألزم طاعته وجعلها فرضاً علي الناس لأنها طاعة لله تعالي، هذا هو سبيل الفلاح ودليل الإيمان، وأما المعرضون عن حكمه فليسوا من ذلك في شيء. [5]

ويشهد ذلك قوله تعالي ﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً ﴾[6].

٥- لقد أدب الله المؤمنين بهذا النهي ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فهذا نهي عام وشامل لكل ما يصرف عن كتاب الله تعالي وسنة رسوله (ﷺ)، فلا يجوز لأي أحد مهما كان وضعه أو مكانته- طالما أنه آمن بالله تعالي إيماناً صادقاً وبرسوله (ﷺ) نبياً ورسولاً- أن يتصرف في أي أمر أو حكم أو يصدر رأياً إلا بعد أن يستفتي الله سبحانه وتعالي من كتابه الكريم، ورسوله (ﷺ) من سنته المطهرة.

فلا حرية لأي مسلم في نفسه أو غيره ما دام أنه إنقاد واستسلم لله وإرتضاه حكماً وآمن به وبنبيه (ﷺ) وليقيم بذلك برهاناً ودليلاً علي صدق إيمانه.

قال الله تعالي ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً ﴾[7].

- وإن المتأمل في واقع المجتمع الإسلامي الآن يلحظ صوراً عديده هي من قبيل التقديم بين يدي الله ورسوله (ﷺ)....
- أليست تربية أبنائنا علي غير منهج القرآن الكريم والسنة النبوية وتقليدهم أو محاكاتهم لأصحاب الثقافات الأخري غير ثقافة الإسلام يعد ذلك من قبيل التقديم بين يدي الله ورسوله (ﷺ).....؟!
- أليس التحاكم إلي غير ما شرعه الله ورسوله (ﷺ) من القوانين الوضعيه التي تخالف حكم الله تعالي أو حكم رسوله (ﷺ) هو من قبيل التقديم بين يدي الله ورسوله (ﷺ)....؟!

---

(1) سورة الناساء : آية ٦٠.
(2) سورة النور : آية ٥١-٥٢.
(3) التفسير المنير نقلاً عن تفسير القرطبي ج٢٦ (٢٢١-٢٢٢).
(4) المصدر السابق ج٢٦ ص (٢٢٢).
(5) راجع تلك المسألة في : الرسالة للإمام الشافعي (٨٤-٨٥) المطبعة الحلبية - القاهرة ط أولي ١٣٥٨هـ.
(6) سورة النساء : آية ٦٥.
(7) سورة الأحزاب : آية ٣٦.

- أليست المعاملات المحرمة القائمة علي استغلال مصالح الناس أو الربا هي من قبيل التقديم بين يدي الله ورسوله (ﷺ).
- أليس حرمان بعض الورثة من ميراثهم الشرعي الذي فرضه الله تعالي. أو حرمان البنت أو الأخت من ميراثها الشرعي أو استبداله بثمن بخس يعد من قبيل التقديم بين يدي الله تعالي ورسوله (ﷺ) قال الله تعالي ﴿ يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاء فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَآؤُكُمْ وَأَبناؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلِيما حَكِيماً ﴾[1].

([1]) سورة النساء : آية ١١

المقصد الثاني

وجوب الأدب مع رسول الله (ﷺ) حياً وميتاً

قال الله تعالي : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ. إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ. إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ.وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.[1]

ما يتعلق بسبب نزول الآيات

أما الآية الأولي وهي قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ فقد ورد في سبب نزولها روايات متعددة نجملها فيما يأتي :-

قيل : إنها نزلت في ثابت بن قيس بن شماس[2] كان في أذنه وقر وكان جهوري الصوت، وكان إذا كلم إنساناً جهر بصوته، فأنزل الله تعالي هذه الآية.

وعن قتادة قال : كانوا يجهرون له بالكلام، ويرفعون أصواتهم، فأنزل الله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾. [3]

وعن أنس بن مالك قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ قال ثابت بن قيس : أنا الذي كنت أرفع صوتي فوق صوت النبي (ﷺ) وأنا من أهل النار، فذكر ذلك لرسول الله (ﷺ) فقال :"هو من أهل الجنة".

- وقال ابن أبي مليكة : كاد الخيران أن يهلك: أبو بكر وعمر رفعا أصواتهما عند النبي (ﷺ) حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس وأشار الآخر برجل آخر، فقال أبو بكر لعمر : ما أردت إلا خلافي. وقال عمر: ما أردت خلافك وارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله تعالي في ذلك ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ وقال ابن الزبير : فما كان عمر يسمع رسول الله (ﷺ) بعد هذه الآية حتي يستفهمه. [4]

وقيل : نزلت في وفد بني تميم أنفسهم.

قال ابن عطية[5] : الصحيح أن سبب نزول هذه الآية هو كلام جفاة الأعراب.

- وعلق ابن حجر العسقلاني (ولد سنة ٧٧٣هـ-توفي ٨٥٢هـ)- علي كلام ابن عطية هذا بقوله" لا يعارض ذلك هذا الحديث فإن الذي يتعلق بقصة الشيخين في تخالفهما في التأمير هو لا ترفعوا " تمسك عمر منها يخفض صوته وجفاة الأعراب الذين نزلت فيهم هم من بني تميم والذي يختص بهم قوله:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وقال : لا مانع أن تنزل الآية لأسباب تتقدمها فلا يعدل إلي الترجيح مع ظهور الجمع وصحة الطرق، ولعل البخاري استشعر ذلك فأورد قصة ثابت بن قيس عقب هذا ليبين ما أشرت إليه من الجمع ثم عقب ذلك كله بترجمة بقوله : قوله تعالي : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ

---

(1) سورة الحجرات : الآيات (٢-٣-٤-٥).

(2) ثابت بن قيس بن الشماس الأنصاري خطيب رسول الله (ﷺ) وقد قتل شهيداً في معركة اليمامة. إنظر ترجمته بالتفصيل في الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ج١ صـ١٩٥ ط أولي ١٣٩٦هـ. نشر مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة.

(3) انظر : أسباب النزول للواحدي (٢٨٧-٢٨٨) وأسباب النزول للسيوطي (٣٤٥)- والتفسير المنير د/ وهبة الزحيلي ج٢٦ صـ(٢١٦-٢١٧).

(4) أخرجه البخاري عن ابن أبي مليكة عن عبد الله بن الزبير -رضي الله عنهما- في كتاب التفسير رقم ٦٥ ب ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ الآية ج٨ صـ٥٩٠-٥٩١ فتح الباري بشرح صحيح البخاري بن حجر ط مكتبة الرياض الحديثة. بالبطحاء. الرياض تحقيق أ/ محمد فؤاد عبد الباقي - وقد بين الشراح أن مقصد البخاري فيما يخص الشيخين قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وذكر الواحدي في أسباب النزول ذلك أيضاً(٢٨٧)- والسيوطي في أسبابه أيضاً (٣٤٤).

(5) الإمام الحافظ المتقبن أبو بكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية الغرناطي الأندلسي ولد سنة ٤٤١هـ وتوفي بغرناطة سنة ٥١٨هـ، انظر في ترجمته تذكرة الحفاظ الذهبي ج٤ (صـ١٢٦٩) ط أولي دار إحياء التراث العربي. بيروت.

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ إشارة إلي قصة جفاة الأعراب من بني تميم لكنه لم يذكر في الترجمة حديثاً وكأنه ذكر حديث ثابت بن قيس لأنه هو الذي كان خطيباً لما وقع الكلام في المفاخرة".[1]

ولعل ترتيب القصة علي النحو التالي : نداء وفد بني تميم من حول الحجرات بأصوات مرتفعة علي النبي (ﷺ) ثم خروج الرسول (ﷺ) إليهم بعد ذلك ثم تدبر النبي (ﷺ) في الأمر أو استشار أصحابه فيمن يؤمره علي هذا الوفد فاختلف أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - وإرتفعت أصواتهما، ثم نزلت الآيات فتعلق الرواة بنهاية القصة وهو ما حصل من أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - وظنوه أنه هو السبب لنزول الآية، بينما أول القصة وهو نداء الأعراب هو السبب المباشر وإن عمت الآيات ما حصل بعد ذلك.

وعلي كل حال فإن كانت حادثة جفاة الأعراب هي الأقرب إلي إساءة الأدب مع رسول الله (ﷺ) وهي السبب الأساسي المباشر في نزول الآية فإن العبرة بعموم اللفظ دائماً لا بخصوص السبب.

وأما الآية الثانية وهي قوله تعالي : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

فقد ورد في سبب نزولها ما أخرجه ابن جرير عن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ قعد ثابت بن قيس في الطريق يبكي، فمر به عاصم بن عدي بن العجلان، فقال: ما يبكيك؟ قال : هذه الآية أتخوف أن تكون نزلت في، وأنا صيت رفيع الصوت فرفع ذلك إلي رسول الله (ﷺ) فدعا به، فقال : أما ترضي أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة؟ قال : رضيت، ولا أرفع صوتي أبداً علي صوت رسول الله (ﷺ)، فأنزل الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

وقال ابن عباس : لما نزل قوله تعالي: ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ ﴾ تألي أبو بكر ألا يكلم رسول الله (ﷺ) إلا كأخي السرار[2]، فأنزل الله تعالي في أبي بكر (ﷺ) : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾.[3]

أما الآيتان- الثالثة والرابعة- وهما قوله تعالي: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ. وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فقد ورد في سبب نزولهما ما يأتي :- عن زيد بن أرقم قال : جاء ناس من العرب إلي حجر النبي (ﷺ) فجعلوا ينادون : يا محمد، يامحمد، فأنزل الله تعالي: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.

وعن قتادة : أن رجلاً جاء إلي النبي (ﷺ) فقال : يا محمد، إن مدحي زين، وإن شتمي شين، فقال النبي (ﷺ) : ذاك هو الله، فنزلت : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ وهو خبر مرسل له شواهد مرفوعة من حديث البراء وغيره عند الترمذي بدون نزول الآية، وأخرج ابن جرير نحوه عن الحسن.

وأخرج أحمد بسند صحيح عن الأقرع بن حابس أنه نادي رسول الله (ﷺ) من وراء الحجرات فلم يجبه فقال : يا محمد، إن حمدي لزين وإن ذمي لشين فقال "ذلكم الله".[4]

وقال محمد بن إسحاق وغيره: نزلت في جفاة بني تميم قدم وفد منهم علي النبي (ﷺ) فدخلوا المسجد فنادوا النبي (ﷺ) من وراء حجرته أن أخرج إلينا يا محمد، فإن مدحنا زين، وإن ذمنا شين، فآذي ذلك من صياحهم النبي (ﷺ) فخرج إليهم، فقالوا: إنا جئناك يا محمد نفاخرك ونزل فيهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ وكان فيهم الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، والزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم.[5]

---

(1) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج٨ (٥٩٠-٥٩١).
(2) السرار: المسارة، أي كصاحب السرار، أو كمثل المساررة لخفض صوته، والكاف صفة لمصدر محذوف. التفسير المنير ج٢٦ هامش صـ٢١٧. ==
==- وقال ابن حجر أخرجه ابن المنذر مرسلاً والحاكم موصولاً : الفتح ٥٩١ ج٨.
(3) أسباب النزول للواحدي(٢٨٨)- وأسباب النزول للسيوطي ٣٤٥-٣٤٦
- وأيضاً التفسير المنير ج٢٦ صـ(٢١٧).
(4) رواه أحمد في مسنده : ج٣ ٤٨٨ وأيضاً ج٦ صـ٣٩٣-٣٩٤ طبعة دار الفكر العربي ببيروت- وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب رقم ٣٢٦٧ ج٥ طبعة ثانية - سنة ١٣٩٥هـ الحلبية. القاهرة.
(5) انظر التفسير المنير ج٢٦ صـ(٢١٧-٢١٨).
(5) انظر : تفسير الكشاف للزمخشري ج٤ صـ٧ الناشر مكتبة المعارف. الرياض.
- مطابع: أسباب النزول للواحدي (٢٨٨-٢٨٩)- وأسباب النزول للسيوطي ٣٤٦ وأيضاً التفسير المنير ج٢٦ صـ(٢١٧-٢١٨).

فذا ولا خلاف في أن هاتين الآيتين الأخيرتين قد نزلتا في وفد بني تميم وهما تعمان كل من شابه الوفد في صنيعه بنداء النبي (ﷺ) من وراء الحجرات أو أساء الأدب معه حياً أو ميتاً فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

المناسبة بين هذه الآيات والآية التي قبلها:-

إذا تأملنا الآية الأولي من هذه السورة وجدنا أنها ترتبط بما بعدها إرتباطا واضحاً. ففي الآية الأولي تعليم للمجتمع المسلم أن تكون الأمور الصادرة من الله تعالي ومن رسوله (ﷺ) مقدمة علي كل شيء بلا قيد ولا شرط لأنهما أحب إلي المؤمنين من كل شيء فهذا هو مقتضي الإيمان بهما ومحبتهما ثم أردف ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر، كأن الأول بساط للثاني ووطاء لذكره، ثم ذكر ما هو ثناء علي الذين تحاموا ذلك فغضوا أصواتهم للدلالة علي عظيم موقعه عند الله، ثم جيء علي عقب ذلك بما هو أطم وهجنته أتم من الصياح برسوله (ﷺ) في حال خلوته ببعض حرماته من وراء الجدر".[1]

المعني الإجمالي للآيات بإيجاز :-

قوله تعالي ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ أي يا أيها المؤمنون بالله ورسوله إذا تكلمتم مع الرسول (ﷺ) فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته، لأن رفع الصوت يدل علي قلة الاحتشام وترك الاحترام، وخفض الصوت وعدم رفعه من التعظيم والتوقير، وهذا أدب ثانٍ أدب الله تعالي به المؤمنين، وهو أدب محمود مع كل الناس أيضاً.

وقوله ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ أي وإذا كلمتموه فخاطبوه بالسكينة والوقار خلافاً لما تعتادونه من الجهر بالقول الدائر بينكم، ولا تقولوا: يا محمد ويا أحمد ولكن يا نبي الله، ويا رسول الله توقيراً له وتقديراً لمهمته ورسالته التي يبلغكم بها في سكون وهدوء وعدم إنزعاج وتبرم نفسي وهذا أدب ثالث.

وقوله ﴿ أن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أي نهاكم الله عن الجهر غير المعتاد وعن رفع الصوت خشية أن يذهب ثواب أعمالكم، أو أن يؤدي الاستخفاف به إلي الكفر من حيث لا تشعرون بذلك- أي من حيث لا تشعرون أنها محبطة.

وبعد أن حذر من خطر المخالفة رغب الله تعالي في خفض الصوت فحث عليه قائلاً :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أي إن الذين يخفضون أصواتهم في أثناء كلام رسول الله (ﷺ) وفي مجالسه، أخلص الله قلوبهم للتقوي، ومحصها، وجعلها أهلاً ومحلاً كما يمتحن الذهب بالنار بيخرج جيدة من رديئة، ويسقط خبيثه فكذلك هؤلاء المتأدبون عند رسول الله (ﷺ) طهر الله قلوبهم من كل قبيح ولهم مغفرة لذنوبهم وثواب عظيم علي تأدبهم بخفض الصوت وسائر الطاعات.

ثم ذم الله تعالي الذين ينادون رسول الله (ﷺ) من خلف أو قدام الحجرات وهي بيوت نسائه كما يفعل أجلاف الأعراب فقال تعالي مرشداً لهم إلي ما هو الخير والأفضل:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾.[2] أي إن الذين ينادونك من بعيد، من وراء حجرات (بيوت) نسائك، وهم جفاة بني تميم أكثرهم جهال لا يعقلون الأصول والآداب والأشياء ولا يدركون ما يجب لك من التعظيم والاحترام، وقوله : "أكثرهم" إما أن يراد به الكل: لأن العرب تذكر الأكثر وتريد الكل، احترازاً عن الكذب واحتياطاً في الكلام، أو يكون المراد أنهم في أكثر أحوالهم لا يعقلون.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي وليتهم لو صبروا حتي تخرج إليهم كالمعتاد لكان لهم في ذلك الخير والمصلحة في الدنيا والآخرة لما فيه من رعاية حسن الأدب مع رسول الله (ﷺ) ورعاية جانبه الشريف، والعمل بما يستحقه من الإعظام الإجلال، والله غفور لذنوب عباده، رحيم بهم، لا يؤاخذ مثل هؤلاء فيما فرط منهم من إساءة الأدب، وهذا حث علي التوبة والإنابة.[3]

---

(1) انظر : تفسير الكشاف للزمخشري ج٤ صـ٧ الناشر مكتبة المعارف. الرياض.
- مطابع دار المعرفة. بيروت.

(2) الحجرات بضمنين جمع حجرة بسكون الجيم والمراد بيوت أزواج النبي (ﷺ).
- انظر : فتح الباري ج٨ صـ٥٨٩ ك التفسير - باب سورة الحجرات ط مكتبة الرياض الحديثة.

(3) انظر : التفسير المنير د/ وهبة الزحيلي ج٢٦ (٢١٩-٢٢١) بتصرف.

اللطائف والأحكام التي ترشد إليها الآيات:-

١- تعليم العرب وغيرهم مكارم الأخلاق وفضائل الآداب إذ كان في العرب جفاء وسوء أدب في خطاب النبي (ﷺ) وتلقيب الناس.

٢- يجب خفض الصوت أثناء مخاطبة النبي (ﷺ) والإمتناع من الجهر بالأصوات أعلي من صوته، وإلا لم يتحقق من المؤمنين الإحترام الواجب للنبي (ﷺ) وليس المراد النهي عن الجهر مطلقاً بحيث يلزم الهمس، وإنما النهي عن جهر مخصوص مقيد بصفة وهو الخالي عن مراعاة أبهة النبوة وجلالة مقدارها وانحطاط سائر الرتب عنها.

٣- ويجب أيضاً علي المؤمنين ألا يخاطبوا النبي (ﷺ) بقولهم : يا محمد، ويا أحمد ولكن: يانبي الله، ويا رسول الله توقيراً له.

٤- حرمة النبي (ﷺ) ميتاً كحرمته حياً، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه وجب علي كل حاضر ألا يرفع صوته عليه ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به. [١]

٥- لقد نص السلف الصالح من الأئمة والعلماء المحققين أن حرمة النبي (ﷺ) وتوقيره وتعظيمه والحياء منه كل ذلك لازم في حياته وبعد وفاته فكما لا يجوز ان ترتفع الأصوات فوق صوته في حياته، لا يجوز كذلك أن ترتفع الأصوات عند قبره الشريف (ﷺ) وعند قراءة سنته المطهرة وسيرته لأن السنة وحي، فكل ما كان في حقه واجباً في حياته علي الناس من هذا الأدب والتوقير يلزم بعد وفاته.... [٢].

٦- إن النهي المذكور عن رفع الصوت هو الصوت الذي لا يناسب ما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء، أما الصوت المرفوع الذي يقصد به الاستخفاف والاستهانة فلا شك أنه كفر وأما الصوت الذي يرفع في حرب أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو ونحو ذلك فليس منهياً عنه لأنه لمصلحة.

٧- إن مخالفة النهي في الآية برفع الصوت أكثر من الحالة المتوسطة المعتادة يؤدي إلي إحباط الأعمال وإبطال الثواب...

٨- إن الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله (ﷺ) إذا تكلموا إجلالاً له أو كلموا غيره بين يديه إجلالاً له أولئك الذين اختص الله قلوبهم للتقوي وطهرهم من كل قبيح وجعل في قلوبهم الخوف من الله والتقوي ولهم مغفرة لذنوبهم وثواب عظيم وهو الجنة.

وقد امتثل الصحابة-رضي الله عنهم- ما أمرهم الله وأدبهم به بكل ما فيه من سمو وإتباع لكتاب الله تعالي فكانوا وقافين عند حدود الله تعالي متخلقين بأدب القرآن وأدب الرسول (ﷺ) وكذلك كان التابعون من بعدهم ومن تبعهم بإحسان إلي يوم الدين.

● فهذا هو الصديق (رضي الله عنه) بعد نزول الآيات يقول للرسول (ﷺ) كما أسلفنا " آليت أن لا أكلمك إلا كأخي السرار" وهذا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) الذي ارتفع صوته مع الصديق (رضي الله عنه) دون قصد من أحد منهما- في شأن من يؤمر من وفد بني تميم كان بعد ذلك إذا تكلم عند النبي (ﷺ) كما ذكرنا سابقاً أيضاً" فما كان عمر يسمع رسول الله (ﷺ) بعد هذه الآية حتي يستفهمه".[٣]

٩- إن أعراب بني تميم الذين وفدوا علي النبي (ﷺ) فدخلوا مسجد المدينة ونادوا النبي (ﷺ)من وراء حجرته أن اخرج إلينا فإن مدحنا زين، وذمنا شين هم قوم جهلة ذو طباع جافية قاسية، غلاظ القلوب، وكانوا سبعين رجلاً وقيل: ثمانين رجلاً، وقيل غير ذلك، والذي يهمنا: أنهم أساؤوا الأدب مع النبي (ﷺ) فأتوا إلي الحجرات فنادوا من حولها من كل جهة من جهاتها حجرة حجرة في وقت كان يخلو فيه رسول الله (ﷺ) مع

---

(١) التفسير المنير ج٢٦ ص(٢٢١-٢٢٣) بتصرف.
(٢) الشفاء بتعريف حقوق المصطفي للقاضي عياض جـ٢ صـ٤٠ طبعة الاستقامة- القاهرة.
(٣) سبق تخريجه.

نفسه أو مع إحدي نسائه في حجرتها فرفعوا أصواتهم باسمه "يا محمد" وجهروا له بالقول، يفاخرونه بأنسابهم وأحسابهم وما كانوا يفعلونه في الجاهلية.

١٠- أنهم لو انتظروا خروجه (ﷺ) لكان أصلح لهم في دينهم ودنياهم وكان (ﷺ) لا يحتجب عن الناس إلا في أوقات يشتغل فيها بمهمات نفسه فكان إزعاجه في تلك الحالة من سوء الأدب.

١١- قوله ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ختام رائع ليفتح لهم باب مقابلة السيئة بالحسنة وحث علي اتوبة والإنابة إلي الله تعالي، تأليفاً لهم من الله تعالي ومن رسوله وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه فقد قابل جفاء طبعهم هذا باللين والحلم فخرج إليهم وأكرم وفدهم ولبي مطالبهم فتحقق من ذلك خير كثير، حيث أعلنوا انقيادهم للإسلام، وقسم لهم الرسول الكريم (ﷺ) حظاً من العطاء.....[1] وصدق الله تعالي في وصفه لنبيه الكريم (ﷺ) بقوله ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[2] وهذا مثل أعلي للدعاة أن يتأسوا ويقتدوا بالنبي الكريم (ﷺ) في كيفية معاملته للجاهلين بالحلم وضبط النفس.

---

(1) انظر ذلك بالتفصيل في : الطبقات لابن سعد ج١ صـ٢٩٤ ط ١٣٩٨هـ الطباعة دار بيروت" وقد ذكر مقدار الجوائز لكل رجل اثنتا عشرة أوقية ونشا- أي نصف أوقية- وأعطي غلاماً منهم خمس أواقٍ..."

(2) سورة آل عمران : آية ١٥٩

المقصد الثالث
من آداب المجتمع الإسلامي لزوم الصدق ووجوب التثبت
من الأخبار الآيات من (٦-٨)

قال الله تعالي : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ. وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ. فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

ما ورد في سبب نزول هذه الآيات :-

ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط بعثة رسول الله (ﷺ) إلي بني المصطلق مصدقاً [1] وكان بينهما إحنة[2] فلما سمع بهم خافهم فرجع فقال: إن القوم هموا بقتلي ومنعوا صدقاتهم، فهم النبي (ﷺ) بغزوهم، فبينما هم في ذلك إذ قدم وفدهم وقالوا : يا رسول الله، سمعنا برسولك، فخرجنا نكرمه، ونؤدي إليه ما قبلنا من الصدقة، فاتهمهم النبي (ﷺ) وقال :" لتنتهن أو لأبعثن إليكم رجلاً هو عندي كنفسي، يقاتل مقاتلتكم ويسبي ذراريكم" ثم ضرب بيده علي كتف علي (رضي الله عنه).

فقالوا : نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله (ﷺ) وقيل : بعث إليهم خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلاة، متهجدين فسلموا إليه الصدقات، فرجع.[3]

وعن الحارث بن ضرار أنه قال : قدمت علي رسول الله (ﷺ) فدعاني إلي الإسلام فدخلت في الإسلام وأقررت فدعاني إلي الزكاة، فأقررت بها، فقلت: يا رسول الله أرجع إلي قومي فأدعوهم إلي الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته، فترسل لإبان كذا وكذا لآتيك بما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث بن ضرار ممن استجاب له وبلغ الإبان الذي أراد أن يبعث إليه رسول الله (ﷺ) احتبس عليه الرسول فلم يأته فظن الحارث أن قد حدث فيه سخطة من الله ورسوله، فدعا سروات قومه فقال لهم: إن رسول الله (ﷺ) قد كان وقت لي وقتاً ليرسل إلي ليقبض ما كان عندي من الزكاة وليس من رسول الله (ﷺ) الخلف، ولا أري حبس رسوله إلا من سخطة، فانطلقوا فنأتي رسول الله (ﷺ)، وبعث رسول الله (ﷺ) الوليد بن عقبة إلي الحارث حتي بلغ بعض الطريق، فرق فرجع فقال : يارسول الله إن الحارث منعني الزكاة، وأراد قتلي فضرب رسول الله (ﷺ) البعث إلي المدينة فلقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم إلي من بعثتم؟ قالوا: إليك، قال : ولم؟ قالوا : إن رسول الله كان بعث إليك الوليد بن عقبة فرجع إليه، فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال : لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته ولا أتاني، فلما أن دخل الحارث علي رسول الله (ﷺ) قال :" منعت الزكاة وأردت قتل رسولي" ؟ قال : لا والذي بعثك بالحق ما رأيت رسولك، ولا أتاني ولا أقبلت إلا حين احتبس علي رسولك خشية أن تكون سخطة من الله ورسوله، قال فنزلت في الحجرات: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ إلي قوله تعالي :﴿ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.[4]

ولا خلاف علي أي حال في أن الشخص الذي جاء بالنبأ هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط، والآية وإن وردت لسبب خاص فهي عامة لبيان التثبت، وترك الإعتماد علي قول الفاسق، قال الحسن البصري :[فوالله لئن كانت نزلت في ثؤلاء القوم خاصة إنها لمرسلة إلي يوم القيامة، ما نسخها شيء].

وأكد الرازي ذلك بأن إطلاق لفظ الفاسق علي الوليد شيء بعيد، لأنه توهم وظن فأخطأ، والمخطئ لا يسمي فاسقاً، كيف والفاسق في أكثر المواضع: المراد به من خرج عن ربقة الإيمان، لقوله تعالي :﴿ سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ

([1]) المصدق : الذي يأخذ صدقات (زكوات) الغنم.
([2]) الإحنة : الحقد، جمع إحن.
انظر هامش التفسير المنير ج٢٦ صـ٢٢٦.
([3]) انظر : تفسير أبي السعود ج٥ صـ١٧٣-١٧٤ تحقيق عبد القادر أحمد عطا - طباعة دار الفكر. بيروت. الناشر مكتبة : الرياض الحديثة - طبعة ثانية ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.
([4]) انظر في ذلك : أسباب النزول للواحدي صـ٢٥٠-٢٥١ .
- أيضاً : أسباب النزول للسيوطي صـ٣٤٧.
- وأيضاً : التفسير المنير ج٢٦ صـ٢٢٦.

لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[١]، وقوله تعالي ﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾[٢]، وقوله تعالي ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾[٣]، لكن أكثر المفسرين علي أن الوليد كان ثقة عند رسول الله (ﷺ) فصار فاسقاً بكذبه، والظاهر أنه سمي فاسقاً تنفيراً وزجراً عن الإستعجال في الأمر من غير تثبت، فهو متأول ومجتهد، وليس فاسقاً علي الحقيقة.[٤]

مناسبة الآيات لما قبلها:- بعد أن أمر الله تعالي المؤمنين بأمرين: وهما طاعة الله تعالي والرسول (ﷺ) وخفض الصوت عند الرسول (ﷺ) لبيان وجوب احترامه أردفه بأمر ثالث وهو وجوب التثبت من الأخبار والتحذير من الإعتماد علي مجرد الأقوال منعاً من إلقاء الفتنة بين أفراد المؤمنين وجماعاتهم وهذا أدب اجتماعي عام ضروري للحفاظ علي وحدة الأمة، وإستئصال أسباب المنازعات فيما بينها.[٥]

المعني العام للآيات:-

يقول الله تعالي ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ أي يا أيها الذين صدقوا بالله تعالي ورسوله (ﷺ) إن أتاكم فاجر لا يبالي بالكذب يخبر فيه إضرار بأحد فتبينوا الحقيقة، وتثبتوا من الأمر ولا تتعجلوا بالحكم حتي تتبصروا في الأمر والخبر لتتضح الحقيقة وتظهر، خشية أن تصيبوا قوماً بالأذي، وتلحقوا بهم بالخطأ نادمين علي ذلك، مغتمين له، متمنين عدم وقوعه.

وفي ترتيب الأمر بالتبين علي فسق المخبر إشارة إلي قبول خبر الواحد العدل في بعض المواد، وقرئ "فتثبتوا" أي توقفوا إلي أن يتبين لكم الحال " أن تصيبوا" حذار أن تصيبوا " قوماً بجهالة" ملتبسين بجهالة حالهم" فتصبحوا" بعد ظهور براءتهم عما أسند إليهم " علي ما فعلتم " في حقهم "نادمين" مغتمين غماً لازماً متمنين أنه لم يقع فإن تركيب هذه الأحرف الثلاثة يدور مع الدوام.[٦]

وقوله ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ أي فاتقوا الله أن تقولوا باطلاً أو تكذبوه فإن الله يخبره ويعرفه أحوالكم فتفتضحوا "لو يطيعكم" أي الرسول " في كثير من الأمر" مما تخبرونه به فيحكم برأيكم" لعنتم" لأثمتم وهلكتم، والعنت: الإثم والهلاك.[٧]

وقوله تعالي ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ تجريد للخطاب وتوجيه له إلي بعضهم بطريق الاستدراك بياناً لبراءتهم عن أوصاف الأولين وإحماداً لأفعالهم أي ولكنه تعالي جعل الإيمان محبوباً لديكم، ﴿ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ حتي رسخ حبه فيها ولذلك أتيتم بما يليق به من الأقوال والأفعال، ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ لما كان في التحبب والتكريه معني إنهاء المحبة والكراهة وإيصالهما إليهم استعملا بكلمة " إلي " وقيل هو استدراك ببيان عذر الأولين كأنه قيل لم يكن ما صدر عنكم في حق بني المصطلق من خلل في عقيدتكم بل من فرط حبكم للإيمان وكراهتكم للكفر والفسوق والعصيان والأول هو الأظهر لقوله تعالي ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ أي السالكون إلي الطريق السوي الموصل إلي الحق والإلتفاد إلي الغيبة كالذي في قوله تعالي ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾[٨].

قوله ﴿ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ أي وإنعاماً تعليل لحبب أو كره وما بينهما اعتراض، ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ مبالغ في العلم فيعلم أحوال المؤمنين وما بينهم من التفاضل ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يفعل كل ما يفعل بموجب الحكمة.[٩]

بعض اللطائف المستنبطة من هذه الآيات:-

---

(١) سورة المنافقون : آية ٦.
(٢) سورة الكهف : آية ٥٠.
(٣) سورة السجدة : آية ٢٠.
(٤) انظر : التفسير المنير، نقلاً عن تفسير الرازي ج٢٦ صـ٢٢٦-٢٢٧.
(٥) انظر التفسير المنير ج٢٦ صـ٢٢٧.
(٦) تفسير أبي السعود ج٥ صـ١٧٤.
(٧) معالم التنزيل للبغوي المجلد السابع صـ٣٣٩ تحقيق / محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة- سليمان مسلم، دار طيبة للطباعة والنشر - الثالثة ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.
(٨) سورة الروم : آية ٣٩.
(٩) تفسير أبي السعود (٥/١٧٥-١٧٦) بتصرف.

١- وجوب التثبت من الأخبار المنقولة والروايات المروية أخذاً بالحيطة والحذر، ومنعاً من إيذاء الآخرين بخطإ فادح، فيصبح المتسرع في الحكم والتصديق نادماً علي العجلة وترك التأمل والتأني.

٢- في هذه الآية ﴿ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ ﴾ دليل علي قبول خبر الواحد إذا كان عدلاً لأنه إنما أمر المسلم في الآية بالتثبت عند نقل خبر الفاسق، ومن ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعاً لأن الخبر أمانة والفسق قرينة يبطلها، فالفسق علة التبين فإن لم يوجد لم يكن علة، واستثني الإجماع والدعاوي والإنكار والإقرار لغيره بحق علي نفسه وإثبات حق مقصود علي الغير أي أمور المعاملات، وخلاصة ما قاله أهل الفقه في ذلك : أن مراد الآية في الشهادات وإلزام الحقوق وإثبات أحكام الدين في غير الإعتقاد.

٣- استدل بعضهم بالآية علي أن الفاسق أهل للشهادة وإلا لم يكن للأمر بالتبين فائدة كما قال الألوسي، ومذهب الحنفية: أن الفاسق لا تقبل شهادته وإن كان أهلاً لها ولو قضي بها القاضي كان عاصياً وينقذ قضاؤه.

٤- إن وجود الرسول (ﷺ) في أصحابه ركن تثبت وأناة وتأنٍ، فيمنع التسرع في إصدار الأحكام فإنه لو قتل القوم الذين سعي بهم الوليد بن عقبة إليه لكان خطأ، ووقع في العنت(لإثم والمشقة والهلاك) من أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم لعداوة كانت بينه وبينهم.

٥- إن الذين وفقهم الله، فحبب إليهم الإيمان وكره إليهم الكفر، أي قبحه عندهم هم الراشدون والله فعل ذلك بهم فضلاً منه ونعمة من لدنه، والفضل: ما في خزائن الله من الخير، وهو مستغن عنه، والنعمة : ما يصل من الفضل إلي العبد، وهو ما يحتاج إليه.

٦- إن الله تعالي عليم بكل شيء يعلم من يتحري الخير ومن لا يتحراه، ومن يريد الرسول (ﷺ) علي ما لا تقتضي به الحكمة ومن لا يريده، وهو فوق هذا يعلم الأشياء، ويعلم الرسول (ﷺ) بها، ويأمره بما تقضي به الحكمة فيجب الوقوف عند أمره واجتناب الإقتراح عليه. (١)

(١) انظر : التفسير المنير ج٢٦ صـ٢٢٩-٢٣٣ بتصرف.

المقصد الرابع

موقف المجتمع المسلم من طائفتين من المؤمنين نشب بينهما قتال أو خلاف وحكم البغاة منهما الآيات:-

قال الله تعالي ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾.

ما يتعلق بسبب النزول :-

عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) :"أنه قيل لرسول الله (ﷺ) : يا نبي الله : لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه علي حمار، وانطلق المسلمون يمشون معه وهي أرض سبخة فلما أتاه النبي (ﷺ) فقال : إليك عني فوالله لقد آذاني نتن حمارك فقال رجل من الأنصار منهم: والله لحمار رسول الله أطيب ريحاً منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه فتشاتما، فغضب لكل أحد منهما أصحابه فوقع بينهم قتال بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنها نزلت :-

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾.

ويروي أنها لما نزلت قرأها رسول الله (ﷺ) فاصطلحوا وكف بعضهم عن بعض.[١]

وقال قتادة : نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مداراة في حق بينهما فقال أحدهما للآخر: لآخذن حقي منك عنوة لكثرة عشيرته، وإن الآخر دعاه ليحاكمه إلي نبي الله (ﷺ) فأبي أن يتبعه فلم يزل الأمر بينهما حتي تدافعوا وتناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال، ولم يكن قتال بالسيوف.

وقال سفيان عن السدي : كانت إمرأة من الأنصار يقال لها أم زيد تحت رجل، وكان بينها وبين زوجها شيء فرقي بها إلي علية وحبسها، فبلغ ذلك قومها فجاؤوا، وجاء قومه فاقتتلوا بالأيدي والنعال فأنزل الله (عز وجل)﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ بالدعاء إلي حكم كتاب الله والرضا بما فيه لهما وعليهما.[٢]

المناسبة بين هاتين الآيتين وما قبلهما : -

بعد أن حذر الله تعالي المؤمنين من نبأ الفاسق، أبان هنا ما يترتب علي خبره من الفتنة والنزاع، وربما الإقتتال، فطلب تعالي الإصلاح بالوسائل السلمية بين المتنازعين كالنصيحة والوعظ والإرشاد بالوسائل السلمية بين المتنازعين كالنصيحة والوعظ والإرشاد والتحكيم فإن بغت إحدي الفئتين علي الأخري فتقاتل الباغية الظالمة ثم علل الأمر بالصلح بوجود رباط الأخوة بين الفريقين ثم أمر الوسطاء والأطراف المتنازعة بتقوي الله وطاعة أوامره.[٣]

---

(١)أخرجه البخاري في كتاب الصلح- باب ما جاء في الإصلاح بين الناس ج٥ صـ٢٩٧
- "فتح الباري".
- وأسباب النزول للسيوطي صـ ٣٤٨.

(٢) أسباب النزول للسيوطي (٣٤٨-٣٤٩)- وتفسير البغوي (٣٤٠/٧).

(٣) التفسير المنير ج٢٦ صـ٢٣٧.

المعني الإجمالي للآيتين بإيجاز:-

يبين الله تعالي في الآية الأولي أنه إذا تقاتل فريقان من المسلمين فيجب علي ولاة الأمور الإصلاح بالنصح والدعوة إلي حكم الله والإرشاد وإزالة الشبه وأسباب الخلاف.

والتعبير بإن للإشارة إلي أنه لا ينبغي أن يقع القتال بين المسلمين وأنه إن وقع فإنما هو نادر قليل والخطاب في الآية لولاة الأمور والأمر فيها للوجوب، وقد استدل البخاري وغيره بهذا علي أن المعصية وإن عظمت لا تخرج من الإيمان خلافاً للمعتزلة والخوارج القائلين بأن مرتكب الكبيرة كافر وهو في النار.

وإنما قال "إقتتلوا" والقياس أن يقول : اقتتلا حملاً علي المعني دون اللفظ لأن الطائفتين في معني القوم والناس فكل طائفة جماعة والطائفة أقل من الفرقة.

وقوله : ﴿ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أي فإن اعتدت وتجاوزت الحد إحدي الفئتين علي الأخري ولم تذعن لحكم الله وللنصيحة فعلي المسلمين أن يقاتلوا هذه الطائفة الباغية حتي ترجع إلي حكم الله وما أمر به من عدم البغي والقتال يكون بالسلاح وبغيره يفعل الوسيط ما يحقق المصلحة وهي الفيئة فإن تحقق المطلوب بما دون السلاح كان مسرفاً في الزيادة، وإن تعين السلاح وسيلة فعل حتي الفيئة.

قوله ﴿ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ أي رجعت الفئة الباغية عن بغيها بعد القتال ورضيت بأمر الله وحكمه فعلي المسلمين أن يعدلوا بين الطائفتين في الحكم ويتحروا الصواب المطابق لحكم الله ويأخذوا علي يد الطائفة الظالمة حتي تخرج من الظلم وتؤدي ما يجب عليها للأخري حتي لا يتجدد القتال بينهما مرة أخري، واعدلوا أيها الوسطاء في الحكم بينهما إن الله يحب العادلين ويجازيهم أحسن الجزاء وهذا أمر بالعدل في كل الأمور. [١]

أما قوله ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أي في الدين والولاية وليس النسب فإن أخوة الدين أقوي وأثبت من أخوة النسب، ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُم ﴾ إذا اختلفا واقتتلا وقرئ ﴿ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ بالتاء علي الجمع، ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تعصوه ولا تخالفوا أمره ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ بسبب التقوي

وهي إلتزام الأوامر وإجتناب النواهي، وقد جاء في السنة النبوية ما يؤكد علي هذا المعني وهو الأخوة في الله بين أبناء هذا الدين الإسلامي والثمار المترتبة علي تلك الأخوة فجاء في الصحيح عنه (ﷺ) أنه قال :"المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يشتمه من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله بها عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة"[٢].

بعض اللطائف والأحكام المستنبطة من الآيتين:-

١- في هاتين الآيتين دليل علي أن البغي لا يزيل اسم الإيمان لأن الله تعالي سماهم إخوة مؤمنين مع كونهم باغين يدل عليه ما روي عن الحارث الأعور أن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) سئل- وهو القدوة- في قتال أهل البغي من أهل الجمل وصفين: أمشركون هم؟ فقال : لا، من الشرك فروا، فقيل: أمنافقون هم؟ فقال : لا، إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا، قيل: فما حالهم؟ قال : إخواننا بغوا علينا"[٣].

والباغي في الشرع هو الخارج علي الإمام العدل فإذا اجتمعت طائفة لهم قوة ومنعة فامتنعوا عن طاعة الإمام العدل بتأويل محتمل ونصبوا إماماً فالحكم فيهم أن يبعث الإمام إليهم ويدعوهم إلي طاعته فإن أظهروا مظلمة أزالها عنهم، وإن لم يذكروا مظلمة وأصروا علي بغيهم قاتلهم الإمام حتي يفيئوا إلي طاعته ثم الحكم في قتالهم أن لا يتبع مدبرهم ولا يقتل أسيرهم، ولا يذفف علي جريحهم[٤]، أما من لم يجتمع فيهم هذه الشرائط الثلاث بأن كانوا جماعة قليلين لا منعة لهم أو لم يكن لهم تأويل، أو لم ينصبوا إماماً فلا يتعرض لهم إن لم ينصبوا قتالاً ولم يتعرضوا للمسلمين، فإن فعلوا فهم كقطاع الطريق. [٥]

---

(١) التفسير المنير ج٢٦ ص٢٣٧-٢٣٨ بتصرف.
(٢) أخرجه البخاري في كتاب المظالم- باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه (٥/٩٧) "فتح الباري".
(٣) هذا الأثر ذكره الإمام البغوي في تفسيره"معالم التنزيل" (٧/٣٤١).
(٤) تذفيف الجرح بمعني : الإجهاز عليه.
(٥) معالم التنزيل للبغوي ج٧ (٣٤١-٣٤٢). بتصرف.

٢- يجب علي ولاة الأمور وحكام الدولة الإسلامية الإصلاح بين فئتين متقاتلتين مسلمتين بالدعوة إلي كتاب الله لهما أو عليهما وبالنصح والإرشاد والتوفيق بين وجهات النظر.

٣- لا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخير القصاص إذا أدي ذلك إلي إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة.

٤- قال ابن العربي : هذه الآية أصل في قتال المسلمين والعمدة في حرب المتأولين وعليها عول الصحابة وإياها عن النبي (ﷺ) بقوله:"تقتل عماراً الفئة الباغية" أي عمار بن ياسر.[١]

٥- الأمر بقتال البغاة فرض علي الكفاية- أي إذا قام به البعض سقط عن الباقين- ولذلك تخلف قوم من الصحابة- رضي الله عنهم- عن هذا الأمر كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمرو، ومحمد بن مسلمة وغيرهم، وصوب ذلك علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عملهم، واعتذر إليه كل واحد منهم بعذر قبله منه.

٦- والقول الصحيح في أموال البغاة وأسراهم وجرحاهم ما فعله الصحابة في حروبهم لم يتبعوا مدبراً، ولا ذففوا علي جريح ولا قتلوا أسيراً، ولا ضمنوا نفساً ولا مالاً وهم القدوة في ذلك، أما ما كان قائماً رد بعينه.

٧- ولو تغلب البغاة علي بلد فأخذوا الصدقات وأقاموا الحدود وحكموا فيهم

بالأحكام لم تثن عليهم الصدقات ولا الحدود ولا ينقض من أحكامهم إلا ما كان خلافاً للكتبا أو السنة أو الإجماع كما تنقض أحكام أهل العدل والسنة، وأما أقضيتهم في الخصومات فقال أبو يوسف ومحمد: لا ينبغي لقاضي الجماعة أن يجيز كتاب قاضي أهل البغي ولا شهادته ولا حكمه إلا أن يوافق رأيه فيستأنف القضاء فيه.

٨- لا يجوز أن ينسب إلي أحد من الصحابة خطأ مقطوع به، إذ كانوا كلهم اجتهدوا فيما فعلوا وأرادوا الله (عز وجل) وهم كلهم لنا أئمة وقد أمرنا بالكف عما شجر بينهم ولا نذكرهم إلا بخير لحرمة الصحبة ولنهي النبي (ﷺ) عن سبهم وأن الله غفر لهم وأخبر بالرضا عنهم.

٩- إنما المؤمنون إخوة في الدين والحرمة لا في النسب، ذكر القرطبي: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب.[٢]

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي (١٧٠٥/٤).
(٢) انظر : التفسير المنير ج٢٦ صـ٢٤٣-٢٤٥ بتصرف.

المقصد الخامس

تحذير المجتمع المسلم من آفات اللسان وسوء الأخلاق التي تؤدي إلي فساد المجتمع وتمزيقه الآيات:-

يقول الله تعالي ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ما يتعلق بسبب نزول الآيتين:-

قوله (ﷻ)﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ قال ابن عباس نزلت في ثابت ابن قيس بن شماس وذلك أنه كان في أذنه وقر فكان إذا أتي رسول الله (ﷺ) وقد سبقوه بالمجلس أو سعوا له حتي يجلس إلي جنبه فيسمع ما يقول فأقبل ذات يوم وقد فاتته ركعة من صلاة الفجر، فلما انصرف النبي (ﷺ) وقد سبقوه بالمجلس أو سعوا له حتي يجلس إلي جنبه فيسمع ما يقول فأقبل ذات يوم وقد فاتته ركعة من صلاة الفجر، فلما انصرف النبي (ﷺ) من الصلاة أخذ أصحابه مجالسهم، فضن كل رجل بمجلسه فلا يكاد يوسع أحد لأحد فكان الرجل إذا جاء فلم يجد مجلساً يجلس فيه قام قائماً كما هو، فلما فرغ ثابت من الصلاة أقبل نحو رسول الله (ﷺ) يتخطي رقاب الناس، ويقول : تفسحوا تفسحوا، فجعلوا يتفسحون له حتي انتهي إلي رسول الله (ﷺ) وبينه وبينه رجل، فقال له : تفسح، فقال الرجل قد أصبت مجلساً فاجلس، فجلس ثابت خلفه مغضباً، فلما انجلت الظلمة غمر ثابت الرجل، فقال: من هذا؟ قال: أنا فلان فقال ثابت: ابن فلانة وذكر أماً له كان يعير بها في الجاهلية فنكس الرجل رأسه واستحيا، فأنزل الله تعالي هذه الآية.

وقال الضحاك : نزلت في وفد بني تميم الذين تقدم ذكرهم في بيان سبب نزول الآية الأولي من هذه السورة، استهزؤوا بفقراء الصحابة: مثل عمار وخباب وابن فهيرة وبلال وصهيب وسلمان وسالم مولي أبي حذيفة وغيرهم لما رأوا من رثاثة حالهم، فنزلت في الذين آمنوا منهم، وقال مجاهد : هو سخرية الغني من الفقير، وقال ابن زيد : لا يسخر من ستر الله عليه ذنوبه ممن كشفه الله، فلعل إظهار ذنوبه في الدنيا خير له في الآخرة.

وقيل : نزلت في عكرمة بن أبي جهل حين قدم المدينة مسلماً وكان المسلمون إذا رأوه قالوا : ابن فرعون هذه الأمة فشكا ذلك إلي رسول الله فنزلت.

والخلاصة: لا مانع من تعدد وقائع النزول، فقد يكون كل ما ذكر سبباً لنزول الآية، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

أما قوله ﴿ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء ﴾ قال ابن عباس : إن صفية بنت حيي بن أخطب أتت رسول الله (ﷺ) فقالت : يا رسول الله، إن النساء يعيرنني، ويقلن لي: يا يهودية بنت يهوديتين فقال رسول الله (ﷺ) "هلا قلت : إن أبي هارون، وإن عمي موسي، وإن زوجي محمد فأنزل الله هذه الآية.

وقيل نزلت في نساء النبي (ﷺ) عيرن أم سلمة بالقصر.

وقوله ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ روي عن أبي جبيرة بن الضحاك قال : كان الرجل منا يكون له الاسمان والثلاثة، فيدعي ببعضها، فعسي أن يكرهه فنزلت ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ قال الترمذي : حسن.

وقيل : كانت الألقاب في الجاهلية فدعا النبي (ﷺ) رجلاً منهم بلقبه فقيل له : يارسول الله إنه يكرهه فأنزل الله ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ قدم النبي (ﷺ) المدينة، وليس فينا رجل الأولة اسمان أو ثلاثة فكان إذا دعا أحداً منهم باسم من تلك الأسماء قالوا : يارسول الله، إنه يغضب من هذا فنزلت.

وأما قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ قيل نزلت في رجلين اغتابا رفيقهما وذلك أن رسول الله (ﷺ) كان إذا غزا أو سافر ضم الرجل المحتاج إلي رجلين موسرين يخدمهما ويتقدم لهما إلي

المنزل فيهئ لهما ما يصلحهما من الطعام والشراب فضم سلمان الفارسي إلي رجلين في بعض أسفاره فتقدم سلمان إلي المنزل فغلبته عيناه فنام فلم يهيئ لهما شيئاً فلما قدما قالا له: ما صنعت شيئاً؟ قال: لا غلبتني عيناي، قالا له : انطلق إلي رسول الله فاطلب لنا منه طعاماً، فجاء سلمان إلي رسول الله وسأله طعاماً فقال له رسول الله: انطلق إلي أسامة بن زيد وقل له : إن كان عنده فضل من طعام وإدام فليعطك، وكان أسامة خازن رسول الله وعلي رحله فأتاه فقال : ما عندي شيء فرجع سلمان إليهما وأخبرهما، فقالا: كان عند أسامة طعام ولكل بخل، فبعثا سلمان إلي طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئاً، فلما رجع قالا: لو بعثناك إلي بئر سميحة لغار ماؤها، ثم إنطلقا يتجسسان هل عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله؟ فلما جاءا إلي رسول الله قال لهما : مالي أري خضرة اللحم في أفواهكما، قالا: والله يا رسول الله ما تناولنا يومنا هذا لحما، قال : بل ظللتم تأكلون لحم سلمان وأسامة فأنزل الله (ﷻ)﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ.﴾[1]

المناسبة بين الآيتين وما قبلهما:-

بعد أن بين الله تعالي وأرشد إلي ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالي ومع النبي (ﷺ) ومع من يخالفهما ويعصيهما وهو الفاسق بين ما ينبغي أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن ومع الناس كافة من الإمتناع عن السخرية والهمز واللمز والتنابز بالألقاب وإساءة الظن، وتتبع عورات الناس ومعايبهم والغيبة النميمة ووجوب المساواة بين الناس واعتقاد أن معيار التفاضل والتمييز هو التقوي والصلاح وكمال الأخلاق.[2]

المعني العام للآيتين :-

هذه أخلاق الإسلام وآدابه العالية التي أدب الله تعالي بها عباده المؤمنين فحذرهم من آفات اللسان التي تؤدي إلي فساد المجتمع وتمزيق وحدته وهي كما وردت في الآيتين السابقتين علي النحو التالي:-

١- النهي عن السخرية والاستهزاء بالناس واحتقارهم :-

قال تعالي ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ ﴾.

أي يا أيها المؤمنون بالله ورسوله لا يهزأ رجال من آخرين فربما كان المسخور بهم عند الله خيراً من الساخرين بهم، أو يكون الشخص المحتقر أعظم قدراً عند الله تعالي من المحتقر له فهذا حرام قطعاً وقد ذكر فيه علة التحريم أو النهي، فقوله ﴿ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾ تعليل للنهي وقد تكون السخرية بمحاكاة القول أو الفعل أو الإشارة، والقوم مختص بالرجال دون النساء لأنهم قوامون علي النساء، ومعني ﴿لَا يَسْخَرْ ﴾ لا يهزأ ولا يحتقر ولا يعب، والسخرية والسخري: الإزدراء والاحتقار.

وأفرد النساء بالنهي هنا مع أنهن يدخلن عادة في الخطاب التشريعي مع الرجال : دفعاً لتوهم عدم شمول النهي لهن، وأكد معني النهي للنساء أيضاً وذلك بالأسلوب نفسه فنص علي نهي الرجال وعطف بنهي النساء بصيغة الجمع لأن أغلب السخرية تكون في مجامع الناس، ولا يقتصر النهي علي جماعة الرجال والنساء دون الأفراد وإنما يشمل الأفراد لأن علة النهي عامة فتفيد عموم الحكم لعموم العلة.

وعلي ذلك فالتمييز إنما يكون بإخلاص الضمير ونقاء القلب وإخلاص الأعمال لله تعالي وليس بالألوان أو الصور أو الأجناس أو الثروات والمظاهر، ومما يؤكد علي هذا المعني ما رواه أبو هريره في الصحيح عن النبي (ﷺ) أنه قال " إن الله لا ينظر إلي صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلي قلوبكم وأعمالكم"[3].

([1]) انظر: أسباب النزول للسيوطي (٣٤٩-٣٥٠)- وأيضاً: معالم التنزيل للبغوي ج٧ (٣٤٤).
- والتفسير المنير ج٢٦ صـ٢٤٨-٢٤٩ بتصرف.

([2]) التفسير المنير ج٢٦ صـ٢٥٠

([3])أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة- باب تحريم ظلم المسلم وخذله النووي علي صحيح مسلم ج١٦ صـ١٢١ ط ثانية - ١٣٩٢هـ.

٢- النهي عن الهمز واللمز- أي التعييب بقول أو إشارة خفية :-

قوله تعالي ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ﴾ أي لا تلمزوا الناس، ولا يطعن بعضكم علي بعض ولا يعب بعضكم بعضاً بقول أو فعل أو إشارة وقد جعل الله لمز بعض المؤمنين لمزاً للنفس لأنهم كنفس واحدة فمتي عاب المؤمن أخاه فكأنما عاب نفسه، والهماز اللماز مذموم ملعون كما قال تعالي ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾[١] والهمز يكون بالفعل، واللمز يكون بالقول، وقد ذم الله من اتصف بذلك في قوله ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ ﴾[٢].

والفرق بين السخرية واللمز أن السخرية احتقار الشخص مطلقا علي وجه مضحك بحضرته، واللمز التنبيه علي معايبه سواء أكان علي شيء مضحك أم غيره، وسواء أكان بحضرته أم لا، وعلي هذا يكون اللمز أعم من السخرية فهو من باب عطف العام علي الخاص لإفادة الشمول.

٣- التنابز بالألقاب أي التداعي بالألقاب التي يسوء الشخص سماعها : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ أي لا يلقب بعضكم بعضاً لقب سوء يغيظه كأن يقول المسلم لاخيه المسلم : يا فاسق، يا منافق أو يقول لمن أسلم : يا يهودي أو يا نصراني، أو يقول لأ إنسان: يا كلب، يا حمار، يا خنزير، ويعزر المرء القائل ذلك بعقوبة تعزيرية وقد نص العلماء علي تحريم تلقيب الإنسان بما يكره سواء أكان صفة له أم لأبيه أم لأمه، والتنابز يقتضي المشاركة بين الإثنين ويستثني من ذلك أن يشتهر الرجل بلقب لا يسوؤه فيجوز إجلاقه عليه كالأعمش والأعرج من رواة الحديث، أما الألقاب المحمودة فلا تحرم ولا تكره كما لقب أبو بكر بالصديق، وعمر بالفاروق، وعثمان بذي النورين وعلي بن أبي طالب بأبي تراب، وخالد بن الوليد بسيف الله...إلخ ذلك.

وقوله ﴿ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ أي ساء الوصف أن يسمي الرجل فاسقاً أو كافراً أو زانياً بعد إسلامه وتوبته أو أن يذكر بالفسوق بعد الدخول في الإيمان، والفسوق: هو التنابز بالألقاب كما كان أهل الجاهلية يفعلون بعد ما دخلوا في الإسلام وعقلوه.

وقوله ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أي ومن لم يتب عما نهي الله عنه من الأمور الثلاثة (السخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب) فهو من الظالمين. [٣]

٤- النهي عن سوء الظن وتحريمه:-

قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ افتتحت الآية الكريمة بهذا النداء الحبيب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ومعلوم أن ما بعد هذا لانداء هو خير نؤمر به أو شر ننهي عنه، وهنا جملة من المنهيات التي حذرهم في الآية السابقة من (السخرية واللمز والتنابز بالألقاب) والهدف من ذلك هو تربية المجتمع المسلم وتهذيبه وتحذيره من سوء الأخلاق التي تؤدي إلي تمزيق وحدته.

وقد افتتحت المنهيات في هذه الآية بالظن لأن الظن هو السبب فيما تقدم وعليه تبني القبائح، ومنه يظهر العدو المكاشح، والقائل إذا أوقف أموره علي اليقين فقلما يتيقن في أحد عيباً فيلمزه به، فإن الفعل في الصورة قد يكون قبيحاً وفي نفس الأمر لا يكون كذلك لجواز أن يكون فاعله ساهياً أو يكون الرأي مخطئاً"[٤].

والظن : اسم لما يحصل عن أمارة ومتي قويت أدت إلي العلم ومتي ضعفت جداً لم يتجاوز حد التوهم. [٥]

وفرق ابن العربي بين الظن والعلم والشك فقال :"إن حقيقة الظن تجويز أمرين في النفس لأحدهما ترجيح علي الآخر، والشك عبارة عن استوائهما، والعلم هو حذف أحدهما وتعيين الآخر"[٦].

وقوله ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ ﴾ أي ابتعدوا عن كثير من الظن فيشمل بعض الظن وهو أن يظن بأهل الخير سوءاً، وهذا هو الظن القبيح وهو متعلق بمن ظاهرة الصلاح والخير والأمانة. أما أهل السوء والفسوق المجاهرون

---

(١) سورة الهمزة : آية ١.
(٢) سورة القلم : آية ١١.
(٣) انظر : التفسير المنير ج٢٦ (٢٥١-٢٥٤) بتصرف.
(٤) تفسير الرازي ١٣٤ ج٢٨ ط الثانية طهران.
(٥) المفردات للراغب الأصفهاني ٣١٧ ط الحلبية. القاهرة سنة ١٣٨١هـ.
(٦) أحكام القرآن لابن العربي ج٤ صـ١٧١٢- الحلبية القاهرة ١٣٧٨هـ.

بالفجور كمن يسكر علانية أو يصاحب الفاجرات فيجوز ظن السوء به لتجنبه والتحذير من سلوكه دون تكلم عليه فإن تكلم بذلك الظن وأبداه أثم.

وقد وردت أحاديث متعددة في تحريم سوء الظن بالمؤمن فيها ما جاء في الصحيح عن أبي هريرة (ﷺ) أن رسول الله (ﷺ)قال :" إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا".(١)

قال سفيان الثوري: الظن ظنان: أحدهما إثم وهو أن تظن وتتكلم به، والآخر ليس بإثم وهو أن تظن ولا تتكلم. (٢)

وإذا كان الأمر كذلك فإن حسن الظن من المؤمن وفي المؤمن خلق رفيع وهو من قبيل الظن المحمود كحسن الظن بالله تعالي الذي يستمد منه المؤمن حسن الظن في المؤمنين، وقد قال (ﷺ) محذراً من سوء الظن بالله تعالي " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله" (٣)

٥- تحريم التجسس:-

قال تعالي ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ التجسس: هو البحث عن عيوب الناس، نهي الله تعالي عن البحث عن المستور من أمور الناس وتتبع عوراتهم حتي لا يطلع علي ما ستره الله منها.

إن من ثمرات سوء الظن التجسس، فالقلب عندما يبتلي بسوء الظن

فإنه لا يقتنع بهوا جسه الظنية بل يمتد به الظن إلي طلب تجسسا وتحسسا، ولما كان هذا غاية من غايات ظن السوء تناول النهي ثانياً التجسس بعد الظن وكلاهما يستلزم الآخر فالظن عندما يحقق لا مضر من التجسس وكل تجسس الباعث والداعي إليه هو الظن وأما التجسس فهو من الكبائر وهو البحث عن الأمور المكتومة أو السرية ومنه الجاسوس، وكذلك التجسس وهو الإستماع لحديث القوم وهم له كارهون حرام أيضاً، لكنه قد يستعمل في البحث عن الخير كما قال تعالي علي لسان يعقوب (عليه السلام) ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾(٤). ومعلوم أن يعقوب (عليه السلام) لا يأمر أبناءه إلا بما فيه الخير ولا يدعو إلي الشر.

وعلي كل فهاتان المادتان "جس وحس" يدور معناهما علي طلب الشيء بالقوة والخفاء وكشفه واستخراجه. (٥)

ومن الأحاديث التي جاءت تنهي عن تتبع عورات المسلمين والتجسس عليهم ما رواه ابن عمر - رضي الله عنهما- أن النبي (ﷺ) قال : " يامعشر من آمن بلسانه ولم يفض الإيمان إلي قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من تتبع عورات المسلمين يتتبع الله عورته، ومن يتتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته"، قال ونظر ابن عمر يوماً إلي الكعبة فقال: ما أعظم وأعظم

حرمتك، والمؤمن أعظم عند الله حرمة منك. (٦)

٦-تحريم الغيبة :-

وهي ذكرك أخاك بما يكره: قال تعالي ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾.

قد تدرجت الآية في أسلوبها من نهي إلي نهي وهذا هو النهي الثالث في هذه الآية وكل في نسق وترتيب بديع وتوجيه كريم لمجتمع فاضل أراد الله به خيراً، ووصف هذا المجتمع بالإيمان ونداءه بالوصف الغالي ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فيه الكفاية في أن هذا المجتمع لا تسود فيه المنكرات وتنوشه الظنون ويمزق وحدته التجسس ويأكل بعضهم

---

(١)أخرجه البخاري في كتاب الأدب- باب" يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن" الآية " ج١٠ صـ٤٨٤(فتح الباري).
(٢) تفسير البغوي ج٧ صـ٣٤٥.
(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم - النووي: ٢٠٩ ج١٧.
(٤) سورة يوسف : آية ٨٧ .
- وانظر التفسير المنير ج٢٦ صـ٢٦٣ بتصرف.
(٥) راجع ذلك بالتفصيل في : لسان العرب لابن منظور ج٦ (٣٨، ٤٩-٥٤) صورة الطبعة الأولي، دار صادر.بيروت.
(٦) أخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة- باب ما جاء في تعظيم المؤمن (٦/١٨٠-١٨١) وقال :"هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسين بن واقد وقد روي إسحاق بن إبراهيم السمرقندي عن حسين بن واقد نحوه، وقد روي عن أبي برزة الأسلمي عن النبي (ﷺ) نحو هذا" وأخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب في الغيبة ٧/٢١٣-٢١٤ عن أبي برزة لأسلمي (ﷺ)"

بعضاً فإن هذا لا يتناسب مع منهج المجتمع المؤمن في حياته الإسلامية وربحا في وصفهم بالإيمان، ويبيح أعراضهم التي هي أغلي من الدماء والاموال وقد حرمها الله ورسوله (ﷺ) بل العرض يفدي بالمال والدم، وماذا بقي بعد العرض؟ وفي أسلوب الآية ما يثير عاطفة الأخ المسلم المغتاب لتشنيع ظاهرة الغيبة وتقبيحها وهو أن من يغتاب أخاه المسلم كأنما يأكل وينهش جثته وهو ميت وكل يشمئز من هذا ويكرهه... [١]

هذا وقد جاء تعريف الغيبة في السنة المطهرة تعريفاً جامعاً مانعاً وتفصيل حال المغتاب في صدقة وكذبه فيما رواه أبو هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال :"أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته" [٢].

هذا، وقد شبه الله تعالي الغيبة بأكل لحم الإنسان الميت للتنفير، وهو أيحب أحدكم أن يتناول لحم أخيه بعد موته؟ فكما كرهتم هذا، فاجتنبوا ذكره بالسوء غائباً، فإنه تعالي مثل الغيبة بأكل جثة الإنسان الميت، وهذا من التنفير، فإن لحم الإنسان مما تنفر عن أكله الطباع الإنسانية، فضلاً عن كونه محرماً شرعاً، وفي الآية أنواع من المبالغات منها الإستفهام للتقرير ومحبة المكروه، وإسناد الفعل إلي "أحدكم" للإشعار بأن لا أحد يحب ذلك، وقييد المكروه بأكل لحم الإنسان، وتقييد الإنسان بالأخ، وجعل الأخ أو اللحم ميتاً فيه مزيد تنفير للطبع.

وهذا دليل علي تحريم الغيبة وعلي قبحها شرعاً لذا كانت الغيبة محرمة بالإجماع وعلي المغتاب التوبة إلي الله والاستحلال ممن اغتابه ولا يستثني من ذلك إلا ما رجحت مصلحته كما في الجرح والتعديل والنصيحة كقوله (ﷺ) لما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر فيما رواه البخاري عن عائشة:"ائذنوا له، بئس أخو العشيرة" فلما دخل ألان له الكلام فقالت عائشة: يارسول الله قلت الذي قلت ثم ألنت له الكلام قال : " أي عائشة إن الناس من تركه الناس- أو ودعه الناس- اتقاء فحشه"[٣].

وكقوله (ﷺ) لفاطمة بنت قيس - رضي الله عنها-، وقد خطبها معاوية أبو الجهم:" أما أبو الجهم فلا يضع عصاه عن عاتقه[٤]، وأما معاوية فصعلوك لا مال له"[٥]

أما قوله ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه فراقبوه في ذلك واخشوا منه واكرهوا الغيبة وتباعدوا عنها إن الله تواب علي من تاب إليه، رحيم بمن رجع إليه واعتمد عليه.

قال جمهور العلماء : طريق المغتاب للناس في توبته أن يقلع عن ذلك، وأن يعزم علي ألا يعود، ويندم علي ما فعل، وأن يتحلل من الذي إغتابه، وقال آخرون: لا يشترط أن يتحلله فإنه إذا أعلمه بذلك ربما تأذي أشد مما إذا لم يعلم بما كان منه فطريقه إذاً أن يثني عليه في المجالس التي كان يذمه فيها وأن يرد عنه الغيبة بحسبه وطاقته لتكون تلك بتلك.

بعض أحكام تستنبط من الآيتين:-

١- حرم الله تعالي في الآية الأولي ثلاثة أشياء هي السخرية واللمز والتنابز بالألقاب ومن فعل ما نهي الله عنه منها فذلك فسوق وهو لا يجوز واستثني من التنابز بالألقاب المكروهه من غلب عليه اللقب في الاستعمال والشهرة فلم يعد يعرف إلا بها كالأعرج والأعمش، أما الألقاب الحسنة كالصديق لأبي بكر، والفاروق لعمر، وذي النورين لعثمان..إلخ فذلك جائز مقبول مألوف بين العرب والعجم.

٢- كذلك حرم الله سبحانه بدلالة النهي أيضاً في الآية الثانية ثلاثة أشياء: هي سوء الظن بأهل الخير والصلاح والإيمان والتجسس والغيبة والظن أنواع:

---

(١) تفسير الرازي ج٢٨ (١٣٤-١٣٦) بتصرف.
(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة- باب تحريم الغيبة برقم ٢٥٨٩ (٢٠٠١/٤).
(٣) رواه البخاري في كتاب الأدب- باب ما يجوز من إغتياب أهل الفساد والريب ج١٠ صـ٤٧١ "فتح الباري".
(٤) كناية عن كثرة ضربة للنساء.
(٥) أوردها الصنعاني في سبل السلام (١٢٩/٣) ط البابي الحلبي. القاهرة.

ظن واجب كحسن الظن بالله تعالي وبالمؤمنين وظن حرام كسوء الظن بالله وبأهل الصلاح والإيمان أما من يجاهر بالخبائث فلا يحرم إساءة الظن به وظن مندوب إليه كإحسان الظن بالأخ المسلم وإساءة الظن إذا كان المظنون به ظاهر الفسق.

وظن مندوب إليه كإحسان الظن بالأخ المسلم وإساءة الظن إذا كان المظنون به ظاهر الفسق.

وظن مباح كالظن في استنباط الأحكام الشرعية الفرعية العملية بالإجتهاد والعمل بغالب الظن في الشك في الصلاة، كم صلي ثلاثاً أو أربعاً.

٣- ذكر العلماء أشياء ليس لها حكم الغيبة، فالغيبة لا تحرم إذا كانت لغرض صحيح شرعاً لا يتوصل إليه إلا به وهي ستة أمور نذكرها بإيجاز:- [١]

أولاً : التظلم : فلمن ظلم تقديم شكوي للحاكم لإزالة ظلمه لحديث البخاري عن أبي هريرة:"دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً" [٢].

فالواجب علي ذوي الإختصاص أن ينصروا المظلوم ويستمعوا إليه ولا يردوه بحجة أنهم لا يقبلون الغيبة والنميمة.

الثاني : الإستعانة علي تغيير المنكر بأن يذكره لمن يظن قدرته علي تغييره لقوله تعالي ﴿ لاَّ يُحِبُّ اللّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللّهُ سَمِيعاً عَلِيماً ﴾[٣]

الثالث : الاستفتاء كأن يقول للمفتي ظلمني فلان بكذا فما طريق الوصول إلي حقي؟

لقول هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان- للنبي (ﷺ)" إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أن وولدي، فآخذ من غير علمه، فقال: خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف"[٤]

الرابع : التحذير من الفساق فلا غيبة لفاسق فاجر كمدمن خمر.....

- وقد بينا سابقاً ما يدل علي ذلك من حديث" إئذنوا له بئس أخو العشيرة".

الخامس : التحذير من سر عام : كجرح الشهود والرواه والمصنفين والمفتين مع عدم الأهلية ونصح الخاطب والشريك ونحو ذلك.

السادس : التعريف بلقب مشهور إذا لم تكن المعرفة بغيره كالأعور والأعمش والأعرج ونحو ذلك.

---

(١) ذكرناها بإيجاز من التفسير المنير ج٢٦ (٢٦٤-٢٦٥).
(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الاستقراض- باب استقراض الإبل ج٥ صـ٥٦-(٦٢) فتح الباري.
(٣) سورة النساء : الآية ١٤٨.
(٤) الحديث متفق عليه وروي عن عائشة أخرجه البخاري في كتاب النفقات ج٩ صـ٥٠٧ فتح الباري - ومسلم في كتاب الأقضيه ج١٢صـ٧"النووي علي صحيح مسلم".

المقصد السادس
البشرية بعضها من بعض وأكرمهم عند الله أتقاهم
آية رقم (١٣) من السورة

يقول الله تعالي ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾.

سبب نزول الآية:-

قال ابن عباس : نزلت في ثابت بن قيس وقوله للرجل الذي لم يفسح له : ابن فلانه، يعيره بأمه، قال النبي (ﷺ) : من الذاكر فلانه؟ فقال ثابت: أنا يا رسول الله، فقال انظر في وجوه القوم فنظر فقال : ما رأيت يا ثابت؟ قال : رأيت أبيض وأحمر وأسود، قال : فإنك لا تفضلهم إلا في الدين والتقوي، فنزلت في ثابت هذه الآية، وفي الذي لم يتفسح: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ سورة المجادلة آية ١١.

وقال مقاتل : لما كان يوم الفتح أمر رسو الله (ﷺ) بلالاً حتي علا ظهر الكعبة وأذن فقال بعض الناس: الحمد لله الذي قبض أبي حتي لم ير هذا اليوم، وقال الحارث بن هشام: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً، وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئاً يغيره، وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً أخاف أن يخبر به رب السماء فأتي جبريل فأخبر رسول الله (ﷺ) بما قالوا فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا فأنزل الله تعالي هذه الآية، وزجرهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والإزدراء بالفقراء.

وقيل نزلت في أبي هند أمر رسول الله (ﷺ) بني بياضة أن يزوجوه إمرأة منهم فقالوا يا رسول الله، نزوج بناتنا موالينا؟ فنزلت الآية.

وقيل : نزلت في شأن عبد أسود مرض فعاده النبي (ﷺ) ثم توفي فغسله وكفنه ودفنه فوجد بعض الناس من أنفسهم شيئاً. [1]

وأقول : إن هذه أقوال يذكرها كثير من المفسرين ويسندونها إلي بعض الصحابة والتابعين، وبعضها بدون سند، والأولي أن يقال :

إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالآية خطأ بها عام تشمل كل الأحداث السابقة وغيرها، بل إن بعض هذه الأسباب فيها أقوال منسوبة لبعض الصحابة يستبعد أن تصدر عنهم مثل استنكار أن يؤذن بلال (ﷺ) يوم الفتح علي ظهر الكعبة مع علمهم أنه مؤذن رسول الله (ﷺ)، ومما يرد به علي ذلك القول أيضاً أنه قد ثبت بإتفاق أهل التأويل علي الراجح أن سورة الحجرات بأكملها مدنية ولم يثبت- كما بينا في التمهيد- أن تلك الآية نزلت بمكة يوم الفتح. [2] والله أعلم.

علاقة الآية بما قبلها:-

ذكر الله تعالي في الآيات التي قبل هذه الآية آداباً وضيئة في نداءات متكررة، يصف الله بها المؤمنين المنادين بالإيمان ليكون ذلك الوصف المحبب إلي النفوس رادعاً يردعهم عما نهاهم عنه، وداعياص يدعوهم إلي التمسك بما أمرهم الله به، ورباهم عليه رسوله (ﷺ)ثم بعد ذلك جاء النداء الأخير في السورة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وصفاً شاملاً لبني البشر، وكأنه عموم بعد خصوص، فالذي نهي الله عنه المؤمنين بصفتهم مؤمنين نهاهم عنه بصفته بشر مع البشرية جمعاء، لأنه ليس هناك مبرر له لا من العقل ولا من الفطرة البشرية، فقد طالبهم بتلك الآداب والأخلاق التي نظمتها السورة في نسق فريد معجز، وسياق متماسك الحلقات جميل النسج.

---

[1] انظر ذلك بالتفصيل في : أسباب النزول للسيوطي (٣٥٠-٣٥١).
- وأيضاً معالم التنزيل للبغوي (٣٤٧/٧).
- وتفسير القرطبي ج١٦ صـ٣٤ ط مصورة عن دار الكتب - القاهرة.

[2] انظر: التحرير والتنوير لابن عاشور مجلد ١٢ ج٢٦ صـ٢١٣.

وكأنه يقول : إن من أدبكم بتلك الآداب وألزمكم إياها وحملكم بها الأمانة وألف بين قلوبكم هو الذي وحد عنصركم ومادة خلقكم فخلقكم من أصل واحد فأنتم من نفس واحدة ولخالق واحد، وإن كنتم شعوباً وقبائل فليس ثم ما يدعو إلي الاختلاف والفرقة..... (1)

المعني الإجمالي للآية : -

معلوم أن الخطاب بقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ عام لجميع البشر من الإنس والجن أيضاً والمؤمنين والكافرين من وجد وقت نزول الآية، ومن سيوجد إلي قيام الساعة.

وأسلوب النداء هذا كثير في القرآن الكريم، وهو لا يخص جنساً دون جنس ولا يتقيد ببشرية زمان ومكان دون أزمنة وأمكنة أخري فهو عام لذرية آدم بل وللجن من كان موجوداً ومن سيوجد منهم، وقد قرر الفقهاء: أن خطاب المشافهة يتناول القاصرين عن درجة التكليف، فينظم في سلكهم من الحادثين بعد ذلك إلي يوم القيامة، أو هو بطريق تغليب الموجودين علي من لم يوجد كما غلب الذكور علي الإناث في قوله: ﴿ اتقوا ربكم﴾ لاختصاص اللفظ بالذكور ويجمع المذكر وعدم تناوله حقيقة الإناث عند غير الحنابلة. (2)

ومعني هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى ﴾ يعني آدم وحواء أي إنكم متساوون في النسب فقد خلقناكم جميعاً من أصل واحد ومن نفس واحدة فلا موضع للتفاخر بالأنساب فالكل سواء، ولا يصح أن يسخر بعضكم من بعض ويلمز بعضكم بعضاً وأنتم إخوة في النسب وقد جعلناكم شعوباً (أمة كبيرة تجمع قبائل) وقبائل هي دون الشعوب، واحدتها قبيلة، ودون القبائل العمائر واحدتها عمارة بفتح العين، ودون العمائر البطون جمع بطن، ودون البطون الأفخاذ واحدتها فخذ ثم الفصائل والعشائر واحدتها فصيلة وعشيرة وليس بعد العشيرة حي يوصف به.

وقيل الشعوب من العجم والقبائل من العرب والأسباط من بني إسرائيل وقيل الشعوب الذين لا ينتسبون إلي أحد بل ينتسبون إلي المدائن والقري، والقبائل : العرب الذين ينتسبون إلي آبائهم.

وقوله ﴿ لِتَعَارَفُوا ﴾ أي لتتعارفوا لا لتتناكروا والمقصود أن الله سبحانه خلقكم لأجل التعارف لا للتفاخر بالأنساب وإن التفاضل بينكم إنما هو بالتقوي، فمن اتصف بها كان هو الأكرم والأشرف والأفضل، فدعو التفاخر ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ ﴾ بكم وبأعمالكم ﴿ خَبِيرٌ ﴾ ببواطنكم وأحوالكم وأموركم، قال ابن عباس : كرم الدنيا الغني، وكرم الآخرة التقوي. (3)

وقد جاءت أحاديث كثيرة تؤكد هذا المعني منها علي سبيل الإستشهاد:-

ما روي عن ابن عمر - رضي الله عنهما- أن النبي (ﷺ) طاف يوم الفتح علي راحلته يستلم الأركان بمحجنه، فلما خرج لم يجد مناخاً، فنزل علي أيدي الرجال، ثم قام فخطبهم فحمد الله وأثني عليه، وقال :" الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية(4) الجاهلية وتكبرها بآبائها، الناس رجلان برتقي كريم علي الله، وفاجر شقي هين علي الله، ثم تلا ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ ثم قال : أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم" (5).

وعن أبي هريرة (ﷺ) قال : سئل رسول (ﷺ) - أي الناس أكرم ؟ قال : أكرمهم عند الله أتقاهم، قالوا : ليس عن هذا نسألك، قال: فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال فعن معادن العرب تسألوني؟ قالوا : نعم، قال : " فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا"(6).

وقوله صلي الله عليه وسلم " إن الله لا ينظر إلي صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلي قلوبكم وأعمالكم"(1).

---

(1) انظر: تفسير الرازي ج٢٨ صـ١٣٦ بتصرف.

(2) انظر : فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق حسن خان ج٢ صـ١٩٢ طبعة العاصمة القاهرة سنة ١٣٨٣هـ والإحكام في أصول الأحكام لإبن حزم ٣٢٤-٣٣٠-٣٣٨ ج٣ ط ٢ سنة ١٣٨٠هـ القاهرة.

(3) انظر : تفسير البغوي ج٧ صـ٣٤٧-٣٤٨.
والتفسير المنير ج٢٦ صـ٢٥٩ بتصرف.

(4) عبيه: الكبر وتضم عينها وتكسر وهي فعوله أو فعيلة...." النهاية في غريب الحديث لابن الأثير(٦٩/٣) .

(5) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير- (تفسير سورة الحجرات) (١٥٥/٩-١٥٦) وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد الله بن دينار عن ابن عمر إلا من هذا الوجه، وعبد الله بن جعفر يضعف، ضعفه يحيي بن معين وغيره، وهو والد علي بن المديني وقد ضعفوه" سنن الترمذي ط الحلبية. القاهرة- وقال إبن العربي وهو صحيح عندي وقد ذكر له سنداص. انظر عارضة الأحوذي علي الترمذي ١٥٦ ج١١ الحلبية. القاهرة.

(6) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء- باب"واتخذ الله إبراهيم خليلاً"(٣٨٧/٦)- فتح الباري".

الأحكام المستنبطة من الآية :-

١- ترشدنا الآية إلي أن الناس جميعاً سواسية كأسنان المشط في الأصل والمنشأ الإنساني فهم من أب وأم واحدة، وفي الحقوق والواجبات التشريعية، وهذه أصول الديمقراطية الحقة.

٢- ترشدنا الآية لاكريمة أيضاً إلأي أن الله خلق الخلق أنساباً وأصهاراً وقبائل وشعوباً من أجل التعارف والتواصل والتعاون، لا للتناكر والتقاطع والمعاداة واللمز والسخرية والغيبة المؤدية إلي التنازع والعداوة، ولا للتفاخر بالأنساب والأعراق والأصول فكل ذلك اعتبارات وهمية مصطنعة تتعارض مع وحدة الأصل والمنشأ الإنساني، وتبين الآية كذلك أن ميزان التفاضل الحقيقي بين الناس هو التقوي، فالأكرم عند الله، الأرفع منزلة لديه تعالي في الدنيا والآخرة هو الأتقي الأصلح لنفسه وللجماعة.

٣- احتج الإمام مالك "رحمه الله" بآية ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى ﴾ علي عدم اشتراط النسب في الكفاءة في الزواج إلا الدين فيجوز زواج الموالي بالعربية وقد تزوج سالم مولي إمرأة من الأنصار هنداً بنت الوليد بن عتبة بن ربيعة، وتزوج بلال أخت عبد الرحمن بن عوف، وتزوج زيد بن حارثة زينب بنت جحش فالكفاءة إنما تراعي في الدين فقط.

وقال الجمهور : يراعي الحسب والمال، عملاً بالأعراف، ومراعاة لواقع الحياة المعيشية، وتحقيقاً لهدف الزواج وهو الدوام والإستقرار. [٢]

---

(١) تقدم تخريجه عند تفسير قوله" يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم...".
(٢) انظر: التفسير المنير ج٢٦ صـ٢٦٦ بتصرف.

المقصد السابع
ليس الإيمان بالتمني كما ادعي جفاة الأعراب، ولكنه ما وقر في القلب وصدقه العمل.

الآيات من (١٤) حتي نهاية السورة :- يقول الله تعالي : -

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ. إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ. قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

ما يتعلق بسبب نزول الآيات:-

قوله (ﷻ)﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ الآية، نزلت في نظر من بني أسد بن خزيمة قدموا علي رسول الله في سنة جدبة فأظهروا الإسلام ولم يكونوا مؤمنين في السر، فأفسدوا طرق المدينة بالعذرات، وأغلوا أسعارها وكانوا يغدون ويروحون إلي رسول الله (ﷺ) ويقولون : أتتك العرب بأنفسها علي ظهور رواحلها، وجئناك بالأثقال والعيال والذراري، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، يمنون علي النبي (ﷺ) ويريدون الصدقة، ويقولون: أعطينا.فأنزل الله فيهم هذه الآية.

وقال السدي: نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح[١] وهم أعراب جهينة ومزينة وأسلم وغفار والديل وأشجع، قالوا: آمنا ليأمنوا علي أنفسهم وأموالهم، فلما استنفروا إلي الحديبية أو الجهاد تخلفوا فأنزل الله تعالي ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾. [٢]

المناسبة بين هذه الآيات وما قبلها:-

لما ختم سبحانه وتعالي الآية التي قبل هذه الآيات بقوله ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ فحث الناس علي التقوي، ثم وبخ من في إيمانه ضعف، كالأعراب الذين يزعمون الإيمان بدخولهم في الإسلام دون أن يعملوا أو من يدخل منهم في الإسلام تقية، وأصل الإيمان الإتقاء من الشرك، وليس الإيمان بالقول فقط، والتقوي لا يصل إليها أحد إلا بالإيمان لا بشرف النسب ونحوه. [٣]

معني الآيات بإيجاز :-

قوله تعالي ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي قالت جماعة من سكان البادية[٤] وهم بنو أسد أول ما دخلوا الإسلام مدعين لأنفسهم مقام الإيمان : صدقنا بالله ورسوله وتمكن الإيمان في قلوبنا، فرد الله عليهم مبيناً لهم أنهم لم يؤمنوا الإيمان الكامل، ولم يصدقوا تصديقاً صحيحاً عن اعتقاد قلب وخلوص نية وطمأنينة وثقة تامة بالله (ﷻ)، وأمرهم بأن يقولوا : انقدنا لك يارسول الله واستسلمنا، وسالمناك فلا نحاربك، وأعلمهم بأنه لن يتمكن الإيمان في قلوبهم بعد، بل كان مجرد قول باللسان دون اعتقاد صحيح ولا نية خالصة الإخبار، وقوله﴿ تُؤْمِنُوا ﴾ لا يراد به إنتفاء الإيمان في الزمن الماضي بل متصلاً بزمان الإخبار أيضاً.

---

(١) الآية من سورة الفتح (١١) وهي ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرّاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرا ﴾.

(٢) انظر تفسير البغوي مجلد ٧ صـ٣٥٠ وأيضاً : التفسير المنير ج٢٦ صـ٢٦٨-٢٦٩

- وأسباب النزول (٣٥١) للسيوطي.

(٣) تفسير الرازي ج٢٨ صـ١٤٠

(٤) الأعراب : جمع أعرابي، وهم سكان البادية، سواء كانوا من العرب أو من غيرهم، والنسبة إلي الأعراب أعرابي، وأما العرب فجمع عربي ولا بد من التفريق بين العرب والأعراب لئلا يتحامل علي العرب في تأويل" . ==

== - انظر : لسان العرب لابن منظور ج١ صـ٥٨٦ نسخة مصورة من الطبعة الأولي - دار صادر. بيروت.

فالإسلام هو الدخول في السلم وهو الانقياد والطاعة، يقال : أسلم الرجل إذا دخل في السلم كما يقال: أشتي الرجل إذا دخل في الشتاء، وأصاف إذا دخل في الصيف، وأربع إذا دخل في الربيع، فمن الإسلام ما هو طاعة علي الحقيقة باللسان، والأبدان والجنان، كقوله (ﷻ) لإبراهيم (عليه السلام) ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [1] ومنه ما هو انقياد باللسان دون القلب وذلك قوله ﴿ وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾.

ثم حرضهم الله تعالي علي الإيمان الصادق بقوله : ﴿ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي ظاهراً وباطناً سراً وعلانية، قال ابن عباس: تخلصوا الإيمان، قوله ﴿ لَا يَلِتْكُم ﴾ أي لا ينقصكم من أجور أعمالكم شيئاً، وقرأ أبو عمرو ﴿ يا لتكم﴾ بالألف، والآخرون بغير ألف، والله تعالي غفور ستار لمن تاب إليه وأناب وأخلص العمل، رحيم به فلا يعذبه بعد التوبة ثم بين الله صفات المؤمنين وحقيقة الإيمان بقوله ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ أي إنما المؤمنون إيماناً صحيحاً خالصاً وهم المؤمنون الكمل، هم الذين صدقوا بالله تعالي ورسوله محمد (ﷺ) تصديقاً تاماً بالقلب وإقراراً باللسان ثم لم يشكوا ولم يتزلزلوا بل ثبتوا علي حال واحدة، وهي التصديق المحض، وجاهدوا بالأموال والأنفس حق الجهاد من اجل طاعة الله وابتغاء مرضاته، قاصدين بجهادهم إعلاء كلمة الله ودينه، أولئك المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حقاً لا كبعض الأعراب الذين أظهروا الإسلام ولم يطمئن الإيمان في قلوبهم.

فلما نزلت هاتان الآيتان أتت الأعراب رسول الله يحلفون بالله إنهم مؤمنون صادقون، وعرف الله غير ذلك منهم فأنزل الله (ﷻ): ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾ والتعليم ها هنا بمعني الإعلام، ولذلك قال ﴿ بِدِينِكُمْ ﴾ وأدخل اباء فيه، أي قل لهم أيها الرسول : أتخبرون الله بما في ضمائركم من الدين ليعلم بذلك حيث قلتم: آمنا؟ والله عالم لا يخفي عليه شيء، يعلم كل ما في لاسماوات وما في الأرض، فكيف يجهل حقيقة ما تدعونه من الإيمان؟.

ثم أوضح الله تعالي أن إسلامهم لم يكن لله فقال ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ أي يعدون إسلامهم منة ونعمة عليك أيها النبي، حيث قالوا : جئناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان وبنو فلان، فرد الله عليهم قائلاً: ﴿ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

أي قل أيها الرسول : لا تعدوا أيها الأعراب إسلامكم منة علي، فإن نفع ذلك إنما يعود علكم ولله المنة عليكم فيه فهو سبحانه الذي يمن عليكم إذ أرشدكم إلي الإيمان وأراكم طريقة، ثم أكد الله علمه بكل شيء فقال ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي إن الله عليم بما ظهر وما غاب في جميع أنحاء السماوات والأرض، ومن جملة ذلك: ما يسره كل إنسان في نفسه، والله مطلع علي كل شيء من أعمالكم، فهو سبحانه بكل شيء وأنه لا تخفي عليه خافية ليترسخ فيها تأكيد بإحاطة علمه سبحانه بكل شيء وانه لا تخفي عليه خافية ليترسخ فيها تأكيد بإحاطة علمه سبحانه بكل شيء وأنه لا تخفي عليه خافية ليترسخ ذلك في الأذهان ويستقر في أعماق القلوب ويتمث دائماً في النفوس. [2]

الأحكام المستنبطة من الآيات:-

١- ظاهر الآية يدل علي أن أولئك الأعراب لم يكونوا مؤمنين إيماناً صحيحاً بل كانوا مسلمين إسلاماً ظاهرياً، والإيمان أخص والإسلام أعم ولم يكونوا منافقين فلو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا كما فعل الله تعالي في سورة براءة، وقد ذهب بعض المفسرين إلي أن هؤلاء الأعراب منافقون ليسوا من الإسلام في شيء بل إن في مقالات بعض منهم ما يفهم منه أن ليس هناك غير درجة الإيمان أو النفاق فلما نفي عن هؤلاء الإيمان وجب أن يكونوا منافقين. [3]

والحق في هذه المسألة : أن سبب النزول الذي ذكروه للآيات ليس فيه دلالة ظاهرة في أن هؤلاء منافقون ولم يرد نص في تخصيص قبيله بني أسد بالنفاق وإن وجد منهم بعض المنافقين وقد كانت كلمات المفسرين في الغالب تذكرهم سبباً للنزول دون غيرهم، بل وقد مال الحافظ ابن كثير "رحمه الله" إلي أن هؤلاء هم السبب مع بيانه أنهم

---

(١) سورة البقرة : آية ١٣١

(٢) انظر: تفسير البغوي (٧/٣٥٠-٣٥١) والتفسير المنير ج٢٦ (٢٦٩-٢٧٢) بتصرف.

(٣) من هؤلاء المفسرين : الرازي في تفسيره ج٢٨(١٤١-١٤٤)- وأبو حيان في البحر المحيط ج٨(١١٧) مطابع النصر الحديثة بالرياض- والقرطبي ج١٦ (٣٤٨) نسخة مصورة من طبعة دار الكتب القاهرة ١٣٨٧هـ- وصديق حسن خان في فتح البيان ج٩ صـ٨٧ وغيرهم.

مسلمون فقال بعد ذكره سببين :"والصحيح الأول، أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد، فأدبوا وأعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد ولو كانوا منافقين لعنفوا وفضحوا كما ذكر المنافقين في سورة براءة" [١]

٢- دلت الآية الكريمة علي أن الإيمان أخص من الإسلام كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، ويدل عليه حديث جبريل (ﷺ) حين سأل عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان [٢]، فترقي من الأعم إلي الأخص، ثم للأخص، فالإيمان لا يحصل إلا بالقلب، فهو تصديق القلب مع الطمأنينة والثقة بالله، والإسلام أعم فهو مجرد نطق باللسان بالشهادتين وإظهار الإنقياد والخضوع لما جاء به النبي (ﷺ). [٣]

والذي يمثل إليه النفس في هذه المسألة هو ما حققه كثير من العلماء في التفريق بين الإيمان والإسلام وبين المؤمن والمسلم وخلاصة هذا التحقيق أنهما إذا ذكرا في موضع واحد افترقا وكان بينهما تفاوت، وإذا ذكر كل واحد دون الآخر شمله وتضمنه، وكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً وهذا هو عقيدة أهل السنة والجماعة. [٤]

وإليه تشير دلالة آية الحجرات التي معناها إذ ذكر فيها الإيمان وذكر الإسلام فافترقا- والله أعلم-.

٣- إن عناصر الإيمان الجوهرية في الآية هي الإيمان بالله وحده لا شريك له والإيمان بأن محمداً رسول الله (ﷺ) وعدم الإرتياب في شيء بل لابد من عقيدة ثابته ويقين كامل لا يتزعزع أبداً والجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس محك الإيمان ودليله وأنه لا حاجه لإعلام الله بأن الإنسان مؤمن فهو سبحانه لا تخفي عليه خافية ويعلم كل شيء في الكون لا حاجه لإعلام الله بأن الإنسان مؤمن فهو سبحانه لا تخفي عليه خافية ويعلم كل شيء في الكون.

٤- لا حرج علي من تأخر إيمانه فالله سبحانه غفار لذنوب عباده كلها بمشيئته رحيم بهم فلا يعذبهم بعد التوبة، وأن نفع الإيمان يعود للمؤمن نفسه فلا يصح لأحد أن يمتن بإسلامه علي أحد بل المنة والفضل لله تعالي الذي وفق عباده للإيمان وأرشدهم إليه وكفي بذلك نعمة.

---

(١) تفسير ابن كثير ج٤ صـ٢١٩ مطبعة الإستقامة. القاهرة ط٣ - ١٣٧٣هـ وأما القول الذي يقول :" إنها نزلت في أعراب جهينة ومزينة وأسلم وغفار وأشجع" فيرد كونهم من المنافقين إن صح أنهم سبب النزول ما جاء في الحديث" قريش والأنصار والجهينة ومزينة. وأسلم وغفار وأشجع موالي ليس لهم مولي دون الله ورسوله..." فتح الباري (٥٤٢/٦).

(٢) الحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان ج١ صـ١١٤ فتح، مسلم في كتاب الإيمان أيضاًج١ (١٦٢-١٦٥)"نووي".

(٣) تفسير الرازي (١٤١/٢٨) وذكر فيه أيضاً"وهذا لا يمنع أن المؤمن والمسلم واحد عند بعض أهل السنة بدليل قوله تعالي عن لوط (ﷺ) ومن آمن مه"فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين. فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين" (الذاريات آية (٣٥-٣٦)).

(٤) راجع المسألة في : شرح النووي علي صحيح مسلم ج١ (١٤٤-١٤٥)- وأيضاً فتح الباري (١١٤-١٢٥) ج١.

الخاتمة

وتتضمن أهم النتائج التي توصلت إليها وهي بإيجاز علي النحو التالي :-

١- أنه لا يمكن لأحد مهما أوتي من الفصاحة والبيان أن يشابه أو يقارب هذا الأسلوب المعجز في هذه السورة الكريمة، فقوله سبحانه في مفتتح السورة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ هذه العبارة هي موضوع السورة وما جاء بعدها إلي نهاية السورة كله تفصيل وتطبيق عملي لصور التقدم بين يدي الله ورسوله فرفع الصوت والجهر بالقول لرسول الله (ﷺ) فرفع الصوت والجهر بالقول لرسول الله (ﷺ) أو نداؤه بصورة غير أدبية لا تليق بمقام النبوة، أو الترويج للشائعات والأنباء الكاذبة علي ألسنة الفاسقين، أو عدم الصلح بين طائفتين من المؤمنين نشب بينهما قتال أو خلاف، أو الإستهزاء بالناس، أو اللمز أو التنابز بالألقاب أو الظن السيء أو التجسس أو الغيبة أو التفاخر بالأحساب أو الأنساب أو إدعاء الإيمان بالقول دون العمل - كل ذلك من قبيل التقدم بين يدي الله ورسوله (ﷺ) **لأنه فعل مخالف للكتاب والسنة... فأي وحدة موضوعية أبلغ وأعمق من هذا الإيجاز " لا تقدموا" وبعده هذا التفصيل الآخذ بعضه بعضاً....؟**

٢- إن المتأمل في سورة الحجرات يلحظ أن الموضوع الرئيسي الذي تتحدث عنه السورة علي وجه الإعمال هو : وجوب الأدب مع الله تعالي، ومع رسوله (ﷺ) حياً وميتاً، وتوجيه المؤمنين إلي ذلك وإرشادهم إلي جملة من مكارم الأخلاق التي تدل علي صدق إيمانهم وتحقق الأخوة الإيمانية بين أفراد المجتمع المسلم".

٣- اشتملت السورة علي رعاية الآداب وغرسها في نفوس المؤمنين وهي علي نوعين : آداب خاصة : وهي ماله علاقة بين النبي (ﷺ) وأمته، وقد ابتدأت السورة بها فأوجبت طاعة الله تعالي والرسول (ﷺ) وحذرت من المخالفة، ثم أمرت بخفض الصوت أثناء خطاب الرسول (ﷺ) إجلالاً له وهيبة منه وتعظيماً لقدره، ثم طالبت المؤمنين بخطاب الرسول (ﷺ) بصفة النبوة والرسالة لا باسمه وكنيته تعظيماً واحتراماً له، وجعلت خفض الصوت عند رسول الله (ﷺ) من التقوي، وذمت من يناديه من وراء حجرات نسائه، وذكرت السورة في آخرها ذم الإمتنان علي الله تعالي ورسوله (ﷺ) بالإيمان. ثم تحدثت عن الآداب الإجتماعية العامة: وهي المتصلة بعلاقات الناس بعضهم مع بعض مما فيه تقرير فضيلة وذم رذيلة لإقامة دعائم المجتمع الفاضل.

٤- أمرت السورة المؤمنين بالتثبت من الأخبار وعدم الإصغاء للإشاعات التي يروجها الفساق ويتناقلونها وأشادت بمقتضي الإيمان وكرهت الكفر والفسوق والعصيان.

٥- وضحت السورة الكريمة طريق فض المنازعات الداخلية بين فئتين متقاتلتين من المؤمنين وهو الإصلاح، وقتال الفئة الباغية حتي تعود لصف الجماعة والوحدة.

٦- أعلنت السوةر قيام رابطة الإخاء والود بين المؤمنين، وحذرت من تفكك الجماعة المؤمنة وإثارة النزاع بين أفرادها وتوليد الأحقاد والضغائن والكراهية بسبب الاستهزاء والسخرية والهمز واللمز والتنابز بالألقاب أو بسبب سوء الظن بالمسلم والتجسس والغيبة والخوض في أعراض المسلمين.

٧- لا سبيل لتوبة المغتاب إلا بالإقلاع عن تلك الغيبة والندم علي إرتكابها والعزم علي عدم العودة إلي مثلها وزاد بعضهم أن يتحلل من الذي إغتابه وقال بعضهم لا يشترط ذلك بل عليه أن يثني عليه في المجالس التي كان يذمه فيها ويرد عنه الغيبة قدر استطاعته.

٨- أن حسن الظن بالله تعالي وبالمؤمنين وأهل الصلاح والخير من قبيل الظن المحمود، وأن سوء الظن بالله تعالي أو بأهل الخير والإيمان من قبيل الظن القبيح المذموم.

٩- صرحت السورة الكريمة بمبدأ الأخوة الإنسانية، والمساواة بين الشعوب والأفراد من مختلف الأجناس والألوان والعناصر وأن مقياس التفاضل بين الناس جميعاً هو تقوي الله سبحانه وتعالي.

١٠- ختمت السورة بالكلام عن الأعراب فميزت بين الإيمان والإسلام، وبينت صفات المؤمنين الأساسية وهي الإيمان بالله ورسوله (ﷺ) والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله، وذمت السورة المن علي الرسول (ﷺ) بالإسلام، وبينت نهاية السورة علمه سبحانه وتعالي بغيب السماوات والأرض وبصره بجميع أعمال الخلق وأنه تعالي يعلم السر وأخفي.

هذا، وقد بذلت قصاري الجهد في إنجاز هذا العمل المتواضع وحرصت علي أن أكون موفقاً في عرضه بأسلوب ميسر وواضح، ولا أدعي أنني بلغت به درجة الكمال- فالكمال لله وحده- فإن وفقت فبتوفيق من عنده تعالي، وإن كانت الأخري فمني ومن الشيطان، وحسبي أني قد بذلت ما في وسعي ولا يسعني إلا أن أدعو العلي القدير بقوله: ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ.﴾ (البقرة آية/٢٨٦).

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلي الله علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم.

كتبه دكتور

أيمن حسن رجب عبد الغني

مدرس التفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية

جامعة الأزهر

أهم المراجع والمصادر

١- القرآن الكريم
٢- التفسير الموضوعي أ.د/ محمد القاسم ط. القاهرة سنة ١٤٠١هـ.
٣- االتحرير والتنوير للعلامة الطاهر محمد بن عاشور دار سحنون- التونسية
٤- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج للدكتور/ وهبة الزحيلي ط أولي دار الفكر المعاصر بيروت- دار الفكر دمشق ١٤١١هـ- ١٩٩١م.
٥- البرهان في علوم القرآن للزركشي ط ثانية دار الفكر. بيروت.
٦- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي نشر دار التراث، القاهرة ط أولي ١٣٨٧هـ
٧- مباحث في علوم القرآن لأستاذنا الدكتور/ القصبي زلط طبعة دار القلم الثانية لسنة ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.
٨- التفسير الكبير للفخر الرازي. ط الثانية. طهران.
٩- غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري. الطبعة الحادية عشر ١٣٨٩هـ- الحلبية
١٠- روح المعاني للألوسي.ط الثانية. دار الطباعة المنيرية دار إحياء التراث العربي. بيروت.
١١- في ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ط٤ سنة ١٩٧٤م- ١٣٩٧هـ دار الشروق
١٢- التفسير الحديث لمحمد عزت دروزة. طبعة حلبية سنة ١٣٨٣هـ.
١٣- عون المعبود شرح سنن أبي داود للعلامة شمس الحق آبادي- تحقيق/ عبد الرحمن عثمان الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ- ١٩٦٨م- الناشر/ محمد عبد المحسن صاحب المكتبة لاسلفية بالمدينة المنورة.
١٤- تفسير القرآن لابن كثير. ط المكتبة العصرية. صيدا. بيروت طبعة ثالثة ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م + ط الإستقامة. القاهرة ثالثة ١٣٧٣هـ.
١٥- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي. الناشر مؤسسة المعارف : بيروت. لبنان ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
١٦- أسباب النزول للواحدي ط دار المعرفة. بيروت لبنان توزيع/ عباس أحمد الباز- مكة المكرمة.
١٧- أسباب النزول للسيوطي ط أولي ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م. دار الهجرة للطباعة والنشر.بيروت تحقيق / بديع السيد اللحام.
١٨- تفسير الطبري.ط ثانية سنة ١٣٧٣هـ. الحلبية. القاهرة.
١٩- فتح الباري بشرح صحيح البخاري. طبعة مكتبة الرياض الحديثة. البطحاء. الرياض أ/ محمد فؤاد عبد الباقي.
٢٠- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون. ط أولي ١٣٥١هـ- القاهرة.
٢١- أحكام القرآن لابن العربي المالكي الحلبية. القاهرة ط سنة ١٣٧٨هـ.
٢٢- الرسالة للإمام الشافعي. المطبعة الحلبية. القاهرة ط أولي ١٣٥٨هـ.
٢٣- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ط أولي ١٣٩٦هـ- نشر مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة.
٢٤- تذكرة الحفاظ للذهبي ط أولي. دار إحياء التراث العربي. بيروت.
٢٥- مسند الإمام أحمد ط دار الفكر العربي. بيروت.
٢٦- سنن الترمذي ط ثانية ١٣٩٥هـ- الحلبية. القاهرة.
٢٧- تفسير الكشاف للزمخشري. الناشر مكتبة المعارف. الرياض. مطابع دار المعرفة. بيروت.
٢٨- الشفاء بتعريف حقوق المصطفي للقاضي عياض ط الاستقامة- القاهرة.
٢٩- الطبقات لابن سعد ط ١٣٩٨هـ- دار بيروت. لبنان.
٣٠- تفسير أبي السعود تحقيق أ/ عبد القادر أحمد عطا- طباعة دار الفكر. بيروت- الناشر مكتبة الرياض الحديثة - طبعة ثانية ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م.
٣١- معالم التنزيل للإمام البغوي تحقيق / محمد عبد الله النمر- عثمان جمعة- سليمان مسلم، دار طيبة للطباعة والنشر- الثالثة ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.
٣٢- صحيح مسلم بشرح النووي ط ثانية - ١٣٩٢هـ.
٣٣- المفردات للراغب الأصفهاني ط الحلبية. القاهرة سنة ١٣٨١هـ.

٣٤- لسان العرب لابن منظور صورة من الطبعة الأولي. دار صادر. بيروت.
٣٥- سبل السلام للصنعاني ط البابي الحلبي. القاهرة.
٣٦- تفسير القرطبي ط مصورة عن دار الكتب - القاهرة ١٣٨٧هـ.
٣٧- فتح البيان في مقاصد القرآن لصديق حسن خان ط العاصمة القاهرة سنة ١٣٨٣هـ.
٣٨- الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ط ٢ سنة ١٣٨٠ه- القاهرة.
٣٩- عارضة الأحوذي علي الترمذي لابن العربي. الحلبية- القاهرة.
٤٠- تفسير البحر المحيط لأبي حيان مطابع النصر الحديثة الرياض.